اعتقال العقل المسلم

ودوره

في انحطاط المسلمين

نبيل هلال هلال

اعتقال العقل المسلم

ودوره

في انحطاط المسلمين

نبيل هلال هلال

فهرس

توطئة ٤
الباب الأول: التعليم ١٢
الفصل الأول نقائص العقل المسلم ١٢
هوامش الفصل الأول.. ٢٦
الفصل الثاني التعليم التلقيني والتعليم الحواري ٢٧
هوامش الفصل الثاني ٦١
الفصل الثالث إغلاق باب الاجتهاد ٦٣
هوامش الفصل الثالث ٨٢
الباب الثاني: التدين.. ٨٣
الفصل الأول الإمـام المنتظـر.................................. ٨٣
هوامش الفصل الأول.. ١٠١
الفصل الثانى القضاء والقدر ١٠٢
هوامش الفصل الثاني ١٢٠
الفصل الثالث التصوف ١٢٢
هوامش الفصل الثالث ١٧٤
الباب الثالث: السلطة ١٧٨
الفصل الأول كلام عن السلطة ١٧٨
هوامش الفصل الأول.. ٢١٠
الفصل الثاني البطش ٢١٢
هوامش الفصل الثاني ٢٢٤

توطئة

إن الراصد لواقع أمة المسلمين اليوم لا يعرف على وجه اليقين ما إذا كانت هذه الأمة جادة في البحث لها عن دور فاعل يخرج بها من صفوف دول العالم الثالث المتخلف المفعول به دائمًا، أم أنها اكتفت بهذا الانكماش والانبطاح طوال هذه القرون. فليس يعد حكيمًا من لم يكن لنفسه خصيمًا وحسيبًا، لذا آن أوان النظر في أحوالنا كي نعرف أين نحن من السبيل إلى استرداد الاعتبار بعد أن صرنا إلى ما نكره. ترى هل لم يبق لنا من أمل إلا في زمن آخر وعلى يد جيل آخر؟

ولا يحق لنا أن نندهش ونتساءل عن سبب هوان المسلمين ومذلتهم، فذلك أمر حتمي يتيسر فهمه في ضوء السنن والنواميس. فأعداؤنا عملوا واجتهدوا ونحن تكاسلنا وتقاعسنا. هم صنعوا أسلحتهم التي يقهروننا بها، ولم نقو على صنع شيء – أي شيء – لا الطائرة أو السيارة أو المدفع. هم يحسنون استثمار أموالهم، ونحن نودع أموالنا في بنوكهم، فيستثمرونها في تنمية اقتصادهم وتعظيم قوتهم، ويصادرونها إن عصينا أوامرهم. حكمهم ديموقراطي

ولا يقوى حاكمهم على نهب أموال العباد، ولا يعلو على القانون، وملوك المسلمين ينهبون أموال بيت المال لأنهم السلاطين والمماليك، ويودعونها في بنوك سويسرا وأمريكا. هم يرصدون للبحث العلمي أموالا طائلة، فغزوا الفضاء وصنعوا الصواريخ والأسلحة الفتاكة والأقمار الاصطناعية، ونحن بأموالنا الطائلة لا نمارس أي أنشطة بحثية جادة. وكأن البحث العلمي عبث والعلم نفسه ترف، فمازلنا نبحث في السماء عن هلال شهر رمضان بالأعين المجردة مثلما كان يفعل البدوي في البادية منذ ١٤٠٠ سنة، ولا نثق في الحساب والعلم لتحديد أوائل الشهور القمرية، في حين أنهم صعدوا إلى القمر، وحددوا لسفينة الفضاء موضع هبوطها بدقة، فهبطت به ولم تتجاوزه. ومن بين علمائنا ووعاظنا المعاصرين من يتعجب ممن يقول بكروية الأرض، وينفي ذلك، بل يتندر عليه.

وفى العالم الأول كما يسمونه، يعملون أكثر من ٨ ساعات يوميًّا، ومتوسط زمن عمل الموظف عندنا ٧٢ دقيقة يوميًّا. هم يرسمون إستراتيجياتهم ويقومون على تنفيذها بأنفسهم، لا أن يتولى غيرهم ذلك نيابة عنهم، ونحن نستعين

بهم في وضع مناهجنا التعليمية والتربوية، وتدريب لاعبينا كيف يلعبون الكرة، حتى آثارنا هم الذين ينقبون لنا عنها في أرضنا، بل إن علم المصريات ذاته من عملهم هم. ونستعين بهم حتى في التخلص من قمامتنا، ثم نقول في دهشة – وغباوة – ما سبب انقلاب الموازين؟ هم يزرعون ما يأكلون حتى يزيد إنتاجهم فيرمونه في البحر حفاظًا على سعره، ونحن نشترى منهم القمح إذ لم نقو بعد على زراعة كل ما نأكل، ناهيك من صنع ما نحتاجه من كل شيء وأي شيء بدءًا من الدراجة الهوائية وأدوات التجميل ولعب الأطفال، وانتهاءً بالطائرة والدبابة والسيارة والكمبيوتر. ثم نندهش ونتساءل: لماذا نحن المهزومون وهم المنتصرون ؟

المسلمون مليار ونصف المليار نسمة تقريبًا، ويتلقون الصفعات على الأقفاء (جمع قفا) من ٦ مليون إسرائيلي، لقد تفقد الأسد المسلم العجوز قوته، فلم يجد بها فضلا، إذ أصبح بلا مخلب ولا ناب، وأغرى به حتى الحملان، وهان على الماعز والقردة، وأصبحنا غرضا يُرمى، ويُغار علينا ولا نُغير إذ تعدو الذئاب على من لا كلاب له. ما سر هذا الهوان؟ اسمع: هم ديموقراطيون يحترمون القانون الذي يعلو

ولا يعلى عليه في بلدهم وإن أنكرنا ذلك من باب العزة بالإثم. هم ينعمون بالحرية ونحن غير أحرار، إذ لا تكتمل الحرية بدون إنتاج الزاد والزناد. الصهاينة لا يقاتلون بعضهم البعض ونحن نفعل، إذ نضرب رقاب بعضنا البعض منذ ١٤٠٠ سنة وحتى الآن. وإن حاربونا استعانوا ببعضنا على محاربة البعض الآخر، ثم ندفع لهم تكاليف هذه الحروب التي سُفكت فيها دماؤنا!! وما حرب الخليج عنا ببعيدة. هم – أوروبا – توحدوا اقتصاديًّا وعسكريًّا مع اختلاف الأعراق واللغات والثقافات، ونحن لا نتفق إلا على دوام الخلاف مع توحد لغتنا وثقافتنا وتاريخنا وديننا .

إن أمة المسلمين الآن أشتات متباينة، فمنها الدول البترولية الشديدة الثراء، والدول الفقيرة التي يموت أطفالها جوعًا، ودول كثيفة السكان، ودول لديها أراض شاسعة لا يقوى أهلها على زراعتها. ولو كان هناك حد أدنى من التعاون والتنسيق بين هذه الدول "الإسلامية" ! لأمكن – مثلا – زراعة الأراضي في بلد ما بأموال بلد آخر بأيدي مزارعي بلد ثالث، ولكننا مختلفون، ومازلنا نردد كالببغاوات، وحبات المسابح بين أصابعنا، دون عقل يفهم

أو قلب يخشع، نردد: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾.

الصهاينة مشغولون بصنع الطائرات والصواريخ والقنابل الذرية، وسلاطيننا مشغولون بسباق الجِمال، الصهاينة يصنعون الأقمار الاصطناعية وأثرياء البدو ومليونيرات البترول مشغولون – أي والله – بالرقص بالسيوف على نقر الدفوف، وهم يرفلون في جلابيبهم البيضاء في احتفالات تبثها الفضائيات بثًّا مباشرًا وكأنها أحداث جلل!. نشجب انحياز أمريكا ونندد بمساعدتها إسرائيل، ولكن نشتري السيارات والمأكولات والمشروبات الأمريكية. نحن العرب ظاهرة صوتية آن لها أن تفيق من غفلتها أو تخرج تمامًا من التاريخ وتصبح أثرًا بعد عين. الأجيال القادمة ستلعن آباءها الأولين الذين غفلوا وفرطوا واستهانوا، فهانوا على أنفسهم وأعدائهم .

لو انتصرنا وطاب عيشنا وهذا حالنا، لكان معنى ذلك هزيمة قيمة العلم والعمل والحق. فلا معنى لأن ينتصر الجاهل على العالم، أو الكسول على النشيط. وليس معقولا أن يتفوق الغبي الذي لا يعرف أنه غبي، على الذكي الذي

يعرف أنه ذكي، لقد فشلنا في فهم منطق العصر ولم نستخدم أدواته. إنهم يألمون لسقوط هرة في بئر، وتسارع الشرطة لإخراجها منه، ونحن لا نعرف من يقتل من في الجزائر، فالألوف تُذبح في الشوارع والمنازل والفاعل مجهول. صحيح أنهم يألمون لموت قططهم، ولكنهم يقصفون عشرات المنازل ويذبحون النساء والأطفال في فلسطين، ذلك لأنهم يرون أننا أقل شأناً من حيواناتهم. إننا أمة لا تملك سوى بعض القدرة على الطفو فوق سطح الأحداث، وما ذلك لقوة ذاتية لديها، بل بفعل انتفاخ جسدها بغازات التحلل والبوار.

ولابد من امتلاك شجاعة النظر إلى الذات وانتقادها، وتشخيص أدوائها، وجلدها إن اقتضى الأمر ذلك، تلك الذات التي خسرناها منذ قرون طويلة ولم نظفر بعد بامتلاكها مرة أخرى، إذ استغرقنا في أحلام مزيفة منعتنا من الاستيقاظ للانشغال بواقعنا البائس. لقد أصبحنا نحن المسلمين رقيق العصر، وما الرقيق والاسترقاق؟ إنه سيطرة شخص على مقدرات شخص آخر، سيد ومولاه، أو طبقة على طبقة، نبلاء ومواطنون أو إقطاعيون ومزارعون، أو سيطرة دولة على دولة، وذاك هو رق العصر الذي نضطلع فيه بدور العبيد

وسادتنا هم الغرب، الغرب القوي الذي تسلح بالعلم وارتـــاد المحيط، وأحدث الانقلاب الصناعي وصنع الأسلحة الناريـــة والدبابات والطائرات، الغرب الذي ينهب أموالنـــا ويســرق بترولنا. ومنذ أن تخلينا عن ديننا وهويتنا ونحن نمارس دور العبيد حتى وإن تمتعت الدول الإسلامية باستقلال صـــوري وكان لها علم رسمي ونشـــيد وطنـــي تصـــدح بـــه الفـــرق الموسيقية، وإن كان لها جيوش وعسكر، فهم لتثبيت العروش وليس لمدافعة السيد الجديد في علاقة الرق العصرية. ولقـــد ضللنا إذ وقعنا في وهم أن أمجادنا التاريخية قابلـــة للتحقـــق مرة أخرى دون حاجة إلى رجال يجاهدون من أجل صـــنع هذه الأمجاد .

ألا ترون عدل أن نكون نحن العبيد وهم السادة؟ هم المنتصرون ونحن المنهزمون؟ هم الأعزة ونحن الأذلـــة؟ إذ مددنا للذل أعناقنا، وهيأنا ظهورنا للركـــوب فامتطانـــا كـــل راكب. وسيبقى الحال على ما هو عليه حتى إشـــعار آخـــر. ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ صـــدق الله العظيم.

ترى ما علة هذا الهوان، إن العلة تتمثل في عـــاملين أساسيين: أولـهما هو الاستبداد وقد تناولناه في كتاب ســـابق*، وثانيهما هو اعتقال العقل المسلم وتجميـده واسترخاصـه والحط من شأنه، وهذا هو موضوع كتابنا الذي بين يـديك، وقد تم هذا الاعتقال على ثلاثة محاور، هي: التعليم، والتدين، والسلطة. وفيما يلي تفصيل ما أجملنـاه. وعلـى الله قصـد السبيل .

---

* الاستبداد ودوره في انحطاط المسلمين – نبيل هلال هلال .

الفصل الأول

نقائص العقل المسلم

- "حجة الإسلام" أبو حامد الغزالي يسفه العقل ويحقر الفلسفة.
- في زمن سقوط العقل يتساءلون عن سبب معاناة الأطفال في الدنيا.
- تُبعث الحيوانات يوم القيامة لتفترس الكفرة في جهنم.
- المخالفون لنا في الرأي كفرة.

نقائص العقل المسلم

يفتقد العقل المسلم القدرة على الرؤية البانورامية الشاملة، ويركز على جزء أو بعض أجزاء من المشـــهد العـــام دون احتوائه كله. وقد عجز لطول اعتقاله عن رد الظواهر إلـــى أسبابها. وهو لا يرى الألوان الرمادية، وحسبه فقط اللونـــان الأبيض والأسود، فلا يرى الحلول الوســطية، فإمـــا بـــراءة أو إعدام، إما كبيرة من الكبائر أو هفوة من الهفـــوات، إمـــا ملاك أو شيطان. لاحظ ذلك لدى وعّاظنا على المنابر، فهـــم لا يرون سوى قمر الجحيم أو الفردوس الأعلى، ولا شـــيء بينهما. وكل مرتكبي الذنوب – أي ذنـــوب – فـــي نظـــرهم آثمون مارقون وسيصلون سعيرا، مهما كانت الذنوب بسيطة ومما يقع في دائرة اللمم الذي يغفره الله تعالى – إن شـــاء – ما دامت هذه الذنوب من غير الكبائر.

وإن تصدق السلطان على بعض رعايـــاه، يـــرون فيـــه المحسن الكبير ويهتفون له بطول العمر، وينسون أنه السارق الظالم المستبد. وإن ربت على الكتف مرة، نسوا الصفع على القفا ألف مرة، وإن قتل ولم يمثل بجثة المقتول عـــدُّوا ذلـــك رحمة ورأفة. ويتناسون أنه كلما اجتمعت للمستبد يد بيضـــاء

واحدة، أتبعها ألف يد سوداء، وإن أحسن مــرة فإنــه أســاء ألوف المرات.

وعندما أثير الخلاف الفقهي الشهير حول مسألة "المنزلــة بين المنزلتين" بشأن مرتكب الكبيــرة، وصــف الخــوارج مرتكب الكبيرة بأنه كافر، في حين أن فرقة المرجئة رأت أنه مؤمن (في محاولة منهم لتبرئة ساحة الأمويين مما اقترفــوه من كبائر في حق الخلق)، ولكــن المعتزلــة يرونــه بــين المنزلتين، أي بين الكفر والإيمان، فهي النظرة الوسطية التي لم يقبلها العقل المسلم الذي اعتاد على الميل يميناً والتــأرجح يسارًا. كما لقي رأي المعتزلة هذا جدلاً كثيرًا على الصــعيد السياسي لأنه يحمل مضموناً سياسيًّا، إذ كان يدعم العباسيين ضد الأمويين.

ولا يسع العقل العربي آراء الآخرين ولا يقبل الاخــتلاف والخلاف، وإنما يصادر ما سواه وينادي بنفيــه وإقصــائه، ولا يتقبل الانتقاد إذ يرى فيه مساسًا مهيناً للذات، ولا يــرى المرامي البعيدة بل يكاد لا يرى أبعد من الأنف بقليل. وهــو عقل مشوش بفعل التأثيرات القبليــة والعصــبية، والجهــل والأمية.

اذكر كيف درج الخلفاء على اعتبار أنفسهم هم عين الصواب الذي يُخَطَّأُ معه ما سواه، فلا يجوز مشاورة الناس، أو إسداء النصح إلى الخليفة، بل عليهم أن لا ينبسوا ببنت شفة في حضرته (حرَّم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان أن يتحدث الناس بحضرته، شأنه في ذلك شأن فراعنة مصر القديمة).

والخلافات المذهبية من المزالق التي تؤثر سلبيًّا، وعلى نحو كريه على أمة الإسلام، ومع ذلك نمضي جميعًا، إلى نهاية مطاف الخلاف، نمضي بغفلة وإصرار على النظر إلى نقاط الخلاف وشبهات الاختلاف، ونغض الطرف عن مواطن التشابه والتماثل. فمعظم أسباب الخلاف إما خلافات سياسية من صنعنا نحن، أو خلافات دينية من صنع الغلاة، غلاة الشيعة وغلاة السنيين سواء بسواء، أو خلافات وهمية من تدبير أعدائنا، وبسذاجة نلتقم الطعم الذي أعده أعداء الإسلام، ونقع في الفخ الذي نصبوه لنا. وما أيسر أن يرى السني والشيعي أن هناك الكثير مما يلتقيان عليه من دين وفكر وغايات ومقاصد ومصالح، وعليهما التعاون معا على عدوهم الذي لا يلتقي مع أي منهما على شيء، بل يتحين

الفرص ويعمل ما يستطيع للقضاء عليهما معًــا، فالخلافــات المذهبية تفت في عضد الأمة، أي أمة، ومن لا يصدق عليه بقراءة التاريخ.

يُرجع المؤرخ جيبون أحد أسباب انهيــار الإمبراطوريــة الرومانية إلى "التطاحن بين المــذاهب والفــرق والطوائــف المسيحية، مما أدى إلى فوضى فكريــة وبلبلــة أيديولوجيــة شغلت الإمبراطورية عن ميدان القتال في وقــت هــو ذروة المحنة، بل إن الطوائف المضطهدة دفعهــا ســخطها إلــى التعاون مع العدو [1]"، وهو عين ما حدث بين فرق الشــيعة والسنة، إذ تعاون وزير الخليفة العباسي مع التتار لأنه شيعي ضد الخليفة السني، مما أدى إلى الهزيمة وسقوط الخلافــة. وقبل أن نسوي خلافاتنا مع أعدائنا، علينا أولاً القيــام بــذلك فيما بيننا (الدول العربية والإســلامية)، فحروبنــا معظمهــا (عربية – عربية)، أو (عربية – إسلامية): العــراق ضــد الكويت، والعراق ضد إيران، والجزائر طوائفه ضد بعضــها البعض، والسودان شماله ضد جنوبه، بلغ مجمــوع ضــحايا الحرب الأهلية في السودان خمسة أضــعاف عــدد ضــحايا

الحروب العربية الإسرائيلية مجتمعة، إنها كارثة حقيقية يجب أن يتصدى لها عقلاء الأمة.

وما أحرانا أن نسلم بأن الخطأ والصواب لا يقتصران على جانب دون آخر، إذ ليس بمقدور أحد احتكار الصواب لنفسه. وأنه ليس من الحتمي أن يكون الصواب في جانبي دائمًا، أو أن يكون الخطأ في جانب الآخر. ويلزم توطين العقل والضمير على قبول الآخر، وتوسيع دائرة التشابه معه، وتقليص حدود الاختلاف بيننا. وتلكم مفاهيم ضرورية لاستقامة الأمور والمضي في الطريق الصحيح كي تسترد الأمة الإسلامية عافيتها، فليس بوسع أحد أن يحذف كل ما هو سواه، ولاسيما أن ديننا الحنيف يسع، بشكل مدهش، الآخر ويقبله ولا ينفيه، ويكفل له مثل حقوق المسلم.

وتضيق صدور بعض التيارات الإسلامية عن تقبل الآخر على النحو الذي تتهم فيه هذه التيارات باللجوء إلى العنف عند تباين وجهات نظرها مع أطراف أخرى. ولكي يفوز طرف من الأطراف عليه فقط إضفاء قدسية دينية على رأيه ومواقفه، فيُري بذلك رأي الفئة المخالفة على أنه كفر وخروج عن الدين. ذلك عين ما جرى في البداية عند التحكيم

بين معاوية بن أبي سفيان وعلي بن أبـــي طالـــب كـــرم الله وجهه، إذا رُفعت المصـــاحف ونـــودي: إن الحكـــم إلا لله. وانتهى الأمر بهم جميعًا إلى السقوط في الفتنة الكبرى.

"وبدأ الصراع بين الخوارج وبين جماعة المسلمين، خلافًا في الرأي، ثم جدلاً فيه، ثم تعصبًا له، ثم حربًا وقتـــالاً مـــن أجله. وكذلك كان الشأن فيما وقع بين الشيعة والســـنة، بـــدأ خلافًا في الرأي، ثم جدالاً، ثم تعصبًا وقتالاً" (٢). ولـــم يـــأن للعقل المسلم أن يوسع من دائرة قبوله للرأي الآخر وأن يسلم بأن الاختلاف جائز، ويمكن للآراء أن تتضاد وتتبـــاين مـــع وقوعها في دائرة الصواب والمقبول طالما أنها تحت مظلـــة ثوابت ديننا الحنيف. ويجب فطام العقل المسلم بحيث يرى أن الاختلاف والتباين أمر طبيعي، ولا يجوز الاقتتـــال لتســـوية الفوارق والاختلافات.

يقول أصحاب فرقة الأزرقية "مـــن فـــرق الحروريـــة": "لا نعلم أحدًا مؤمنًا، وكفّروا أهل القبلة إلا من دان بقـــولهم". و "الأباضية "من الحرورية أيضًا" قالوا: "من أخذ بقولنا فهو مؤمن، ومن أعرض عنه فهو منافق". فهم يحتكرون الحـــق والحقيقة والصواب، وما سواهم باطـــل. والانحـــراف يولـــد

انحرافًا، وأمعنوا في غيهم بعد أن زعموا احتكـــار الحقيقـــة حتى خرجوا من الملة. فمنهم فرقة الشمراخية "مـــن فـــرق الحرورية"، أباحوا مضاجعة النساء عامة، فقـــالوا: لا بـــأس بمس النساء الأجنبيـــات – أي غيـــر الحلـــيلات – لأنهـــن رياحين!؟ ولم يكن هناك حد يتوقفون عنده، فقـــال أصـــحاب فرقة المعطلة "من فرق الجهمية": من ادعى أن الله يرى فهو كافر [٣]، تعالى الله علوًّا كبيرًا عما يصفون.

"وعندما نقرأ في كتب أصحاب المذاهب والفرق أن فرقة ما خرجت لمحاربة الكفار، فالمقصود هنا "المخالفون لهم في الرأي" حتى لو كانوا من الفرقة نفسها" [٤].

ويقرأ المسلم المروض الآيـــة الكريمـــة: ﴿ **وَالَّـــذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ**﴾ (الشورى: ٣٩)، وغيرها من الآيات التي تحض على مناهضة الظلم والقهـــر، وبعـــد أن ينتهي هذا المسلم المستأنس من القراءة وقد اغرورقت عيناه بالدموع تأثرًا، يغلق المصحف في ورع شديد، ويضعه جانبًا في خشوع جم، ثم يبادر بكشف ظهره ليجلده مولانا بسوطه، ويمد قفاه ليصفعه رجاله ومماليكه. ويواجـــه المستضـــعفون واقعهم بمبادئ وسلوكيات أخرى تختلف تمامًا عن ما يحضهم

عليه ربهم، ويصفقون للمستبد ويهتفون بحياته ملء الحناجر، ويدعون له بطول العمر، عمر تطويق أعناقهم بأصفاده. وتهلل الجماهير المقهورة: بالروح والدم نفديك يا فلان، ويعلم السلطان كذبهم، ويعلم المستضعفون أنهم لا يعنون ما يقولون. إنها علة العقل العربي الموصوم بالفصام وقبول الأضداد.

إنهم – أي المستضعفين – يقدسون ثوابت من تاريخهم وعاداتهم وتراثهم، ولا يناقشونها بل يتأسون بها وتنفعل بها ضمائرهم وإن خالفت عقولهم وعاكست آمالهم وطموحاتهم.

وعمد أعداؤنا إلى السيطرة على العقل المسلم، أو على الأقل إبطال مفعوله، إذ إن سيطرتهم العسكرية على بلادنا لم تكن لتدوم دون إبطال فعالية العقل المسلم، فالقوى الواعية في بلادنا التي دانت للمستعمر ستواصل مناهضته طالما أن عقولها غير محاصرة، لذا حاصرنا بمجموعة من الأفكار المسيطرة مثل التصوف، وزكَّى أفكارًا أخرى كقبول الأمر الواقع على اعتبار أنه تسليم بالقضاء والقدر، وذلك كله في ظل تبعية ثقافية أصبحنا جاهزين لها بعد شل عقولنا. وتعطيل العقل يؤدي ضمن ما يؤدي إليه إلى إخماد جذوة

الكفاح الوطني. "وقد كانت منظومة الأفكار المبررة لاستعمار بلدان ما يسمى بالعالم الثالث تؤكد على الفراغ العقلي لشعوب تلك البلدان، وعلى الكسل، والخدر" [٥]. نعم كانت العقول فارغة ومعطلة إذ شغلتها أفكار التصوف، واعتدنا السلبية والكسل، إذ توهمنا أن التوكل هو التواكل وأن حسن التدين في انتظار الفرج، وأن الأمور تجري كيفما يحلو لها، فهو القضاء والقدر". واستهان الصوفيون بالعقل طريقًا إلى المعرفة والسعادة، بل منهم من حارب العقل كأداة للمعرفة واليقين وحقره. وحسبنا أن نشير في هذا الصدد إلى حملة أبي حامد الغزالي على الفلسفة، واتهام أهلها بالغباء والحماقة والجهل، بل اتهامهم بالكفر، والنتيجة التي أسفرت عنها هذه الحملة هي ضيق العالم الإسلامي – مشرقه ومغربه – بالفلسفة وأهلها. ولا ندري ماذا يكون الإنسان بغير العقل الذي وهبه الله له وميزه به عن سائر الكائنات [٦]؟

وقد طرأ على العقل الغربي تغير جوهري في طريقة التفكير تأثرًا بآراء الفيلسوف المسلم ابن رشد، واهتداءً بأفكار فرانسيس بيكون التي استقاها من تراث المسلمين في وقت عزهم العلمي وهي أفكار تدور حول المنهج العلمي في

البحث القائم على الملاحظة والاستقراء، ولكننا في عالمنا الإسلامي بعد أفول عصر العز العلمي الإسلامي، ناصبنا ابن رشد العداء وتولى حجة الإسلام!!!! أبو حامد الغزالي تسفيه آراء ومنهج ابن رشد، والغض من قيمة العقل كأداة للتوصل إلى الحقيقية، واعتمد بدلا منها الدروشة وأباطيل الصوفيين.

ويناقشك الرجل منهم ساعة في أمر تختلفان فيه حتى تقنعه بالرأي الصواب بعد أن تسوق له من الأدلة ما يدحض رأيه. فإذا كان الصواب يخالف معتقده من الموروثات، تململ في جلسته وقال: أنا مقتنع بما سقته من أدلة دامغة، ولكنني..، إنه عقل مطاط يسع الشيء وضده. ترى ذا اللحية الكثة المرتشي الذي يتقاضى مالاً حرامًا حتى لا يعطل مصالح الناس، ثم يمضي في خشوع والمسبحة في يده إلى المسجد ليصلي بل ليؤم باقي المصلين! وترى المتعلمين الذين يقصدون السحرة والدجالين لمعرفة الطالع وضرب الرمل. وترى الرجل يحدثك عن وجوب التسامح وحسن المعاملة والتوصية خيرًا بالنساء، ثم يذيق زوجته من ألوان القهر الكثير.

إن إعمال العقل والتفكير عمل حواري بين المرء ونفسه، بين ضميره وعقله، فهو فرض عين، لا فرض كفاية يسقط بممارسة البعض له دون الكل، وكلنا مطالبون بإعمال عقولنا والتدبر، وإقامة هذه العلاقة الحوارية بين النفس والعقل. وبقدر ما ينشط الناس في اكتشاف العالم واستكشاف حقائقه، بقدر ما تتعمق رؤيتهم له ويتأتى انسجامهم معه. وبقدر مضي المفكرين في استكناه الواقع والبحث عن إجابات يفرضها تجدد واقعهم، بقدر ما يكون مضيهم في الاتجاه الصحيح. ويتعين على المستضعفين التدبر ومواصلة ممارسة التفكير رغمًا عن وسائل الإعلام والسياسات التعليمية والنظم القهرية التي تعمل في عكس هذا الاتجاه، إذ تعمد إلى تبليد عقول الناس وتسطيح مدركاتهم في محاولة للالتفاف حول عقولهم لإحكام اعتقالها وتعطيلها.

ومن نقائص العقل المسلم التي تأصلت فيه، خصوصًا بعد غلق باب الاجتهاد، الاستعلاء على الآخر، والنظر إليه نظرة فوقية، إذ ظن الفقهاء ورجال الدين من غير المتحمسين للعلوم العقلية أن ما يعرفونه هو العلم كل العلم، وما سواه علوم الجهل بها لا يضر والعلم بها لا ينفع. كانت تلك هي

النظرة إلى العلوم غير الدينية في أوقات الظلام. والموضوعية والمنطق يقضيان بالتساؤل حول الحقائق لا تقريرها في جزم وثقة ولاسيما لمن لا دربة له أو خبرة. ها هو أحد رجال الدين المعاصرين ممن شغلوا منصب مفتي الديار في إحدى الدول يسخر ممن يقولون بكروية الأرض، ويرميهم بالجهل!! وكان حري به – وبأمثاله – أن يتساءلوا بتواضع حول الحقائق التي يجهلونها، لا أن يقرروا في جزم وزجر أباطيل يمكن أن يرد عليها مفندًا طفل في الدراسة الابتدائية. وكيف يؤتمن على الدين من كان هذا منهجهم وذلك مبلغ علمهم، فمن يجهل معارف العصر ويتصدى للفتوى وهو يطبق الفقه الإسلامي الموروث تطبيقًا حرفيًّا، لابد وأن يناله الشطط والضلال.

وصرف فقهاؤنا، في زمن سقوط العقل، صرفوا اهتمامهم لأمور تافهة لا تستحق صرف العناية إليها، فتساءلوا، مثلا، عن سبب معاناة الأطفال في الدنيا، وهل هي عقاب متوقع عن خطايا ربما كانوا سيرتكبونها لو كبروا؟ وتساءلوا عن بعث الحيوانات المفترسة، وعن معاناة البهائم، ويرى بعضهم

أن الله سيبعث الحيوانات المفترسة يوم القيامة، لا ليعاقبها، ولكن لتفترس الكفار في جهنم.

ويقع ضمن دائرة غمط العقل حقه، عدم الأخذ بآليات البحث العلمي في حل مشاكلنا واعتمادنا على الفهلوة والحظ أحياناً والتجاهل أحياناً أخرى. كذلك نغمط العقل حقه عندما يُوَلى أهل الثقة وننحي جانبًا أهل الخبرة في المواقع القيادية بدءًا بالمصانع والمؤسسات والدواوين وانتهاءً بالجيش، فينتهي الحال إلى البوار والفشل وسوء المنقلب. وتستفحل مشاكلنا وتستعصي على الحل، ويستمر اتساع الهوة بيننا وبين الغرب المتقدم الذي يعظم العقل ويأخذ بآليات البحث العلمي.

نقائص العقل المسلم

1. جيبون – ازدهار وسقوط الإمبراطورية الرومانية.
2. عبد الكريم الخطيب – التصرف والمتصوفة.
3. ابن الجوزي – تلبيس إبليس.
4. د. عبد الرحمن الشيخ/ مقدمة كتاب مونتجري وات – القضاء والقدر.
5. عزت السيد جاسم/ تأملات في الحضارة والاغتراب.
6. د. توفيق الطويل/ في تراثنا العربي الإسلامي.

الفصل الثاني

التعليم التلقيني والتعليم الحواري

- كيف يكرس التعليم التلقيني تعطيل العقل وإعداد أجيال تقبل القهر والاستبداد.
- المسلمون لم يعرفوا الجامعات ولا الجمعيات العلمية.
- خمسون سنة كافية لإحداث نهضة علمية .
- ازددنا تخلفاً منذ نهضة محمد علي باشا.
- مواجهة العدو بنقر الدفوف وهز الوسط والنفخ في المزامير.

التعليم التلقيني والتعليم الحواري

إن الهدف الأساسي لأي نظام تعليمي هو إعداد العقول القادرة على صنع المستقبل، والعقول المدربة على طرح الأسئلة والبحث عن إجابات عنها، العقول التي يمكنها ممارسة النقد وكشف أساليب القهر الذهني، القادرة على الإبداع، لا مجرد إعداد عقول لا تحسن سوى الحفظ وتعجز عن ممارسة التساؤل والاستفهام. فأساليب التعليم عندنا بعيدة عن فهم احتياجات العصر، إذ تناسب من نشئوا في ظروف تكبيل العقل وتكميم الأفواه، تناسب إعداد موظفين لا مبدعين ينهضون بعبء حشد القوى لتنمية الأمة في عصر تكتلات الدول وسحق الأمم الضعيفة المشرذمة. ويصعب الوثوق في نظام تعليمي يتعرض باستمرار للتغيير المستمر لا بغرض التطوير والتحسين، وإنما بسبب افتقاد خطة راسخة تقوم على رؤية واضحة للأهداف المرجوة من التعليم. ويمضي نظامنا التعليمي في اتجاه تعميق الهوة بيننا وبين سائر الأمم المتقدمة، فالمدة التي تتضاعف فيها المعارف الإنسانية تتناقص باطراد مذهل، مما يجعل اللحاق بالأمم التي سبقتنا أمرًا يكاد يكون مستحيلا في ظل الإمكانات الراهنة. كما أن

ما يتم ممارسته في المدارس من تعليم تلقيني يرمي إلى إحكام السيطرة على عقول الطلاب من أجل توجيهها حسب توجيهات المستبدين، وصرف هذه العقول بعيدًا عما يتهددها، فمن تعلموا بهذه الطريقة التلقينية هم أنسب من يلائمون القهر والاستكانة والامتثال. فنظام القهر لا يسمح للمتعلم بالتساؤل، والتساؤل هو أول الطريق إلى الانتقاد واكتشاف الواقع، وهو بداية عمل العقل الإبداعي "المبدع". ولما افتقدت أمتنا حرية الرأي والكلمة ضاعت، بالضرورة، القدرات الإبداعية لهذه الأمة، فالحضارة هي منتجات الفكر، والفكر هو نتاج عقلي لذا يمكن فهم استحالة إنشاء حضارة دون تحرير العقل ثم تفعيله عن طريق نظام تعليمي فعال، ومعنى ذلك أن التخلف والتبعية والتدني سيبقون قدرًا مقدورًا وسرمدًا ممتدًّا طالما أن العقل مفرغ ومقيد.

دور التعليم التلقيني في اعتقال العقل :

التعليم النظامي في المدارس الحكومية يكرس إعداد أجيال تقبل الواقع على أنه أفضل الممكن، أجيال عاجزة عن التأمل والاستنتاج والحوار، وذلك باستبعاد وسائل التعليم الحواري التحليلي الموضوعي النقدي الذي يدرب العقل ويشحذ

الحواس. ويتبنى هذا التعليم النظامي الوسائل التعليمية التـــي ترسخ الذاكرة والحفظ لدى التلاميذ على حساب ملكات النقــد والإبداع والتفكير. وكان الحفظ هو طريقة التعليم التـــي درج عليها العرب قبل الإسلام، فقد كانوا أميين لا يعرفون القراءة والكتابة، واعتمدوا على الذاكرة في حفظ أشعارهم. ولما كان التعليم بعد الإسلام يعتمد أساسًا على القــرآن الــذي كـــانوا يحفظونه عن ظهر قلب، لذا كان الحفــظ بمثابـــة الوســيلة الأساسية في المنهج التعليمي وهى وسيلة لم تكن غريبة على آبائهم الأولين في الجاهلية، ولم يكـــن الحفــظ والاســتظهار خاصًّا بالقرآن الكريم أو الحديث الشريف، وإنما تعداهما إلى العلوم الأخرى أيضًا. "وكلما تأكدت حقيقة أن الطلاب مجرد مخازن للمعلومات كلما قل وعيهم بالعالم المطلــوب مـــنهم تغييره، فقبولهم لهذا الدور السلبي، يعني بالضرورة تـــأقلمهم المستمر مع الواقع المفروض عليهم والمعرفة المبتسرة التي أريد لها أن تملأ عقولهم. ومن هنا يتضح أن مهمة التعلـــيم التلقيني الذي يعتمد على مجرد تخزين وإيداع المعلومات في عقول الطلاب تتركز في تقليل القدرة الإبداعية عند الطلاب أو إلغائها تمامًا من أجل خدمة أغراض المســتبدين الـــذين

لا يرغبون في أن يصبح العالم مكشوفًا لهؤلاء، أو أن يصبح موضوعًا للتغيير. فالمستبدون يتصرفون بغرائزهم ضد أي محاولة في التعليم تستهدف تنمية الملكة النقدية. لأجل ذلك يشجع المستبدون مفهوم التعليم التلقيني، ويستميتون من أجل فرض نظام التعليم التلقيني الذي يبقي الواقع على ما هو عليه [١].

وقبل قرن مضى، أدرك المفكر أديب إسحاق* كيف يمكن عن طريق التعليم اللاحواري إحكام استعباد العقل وقتل حرية المتعلم، فيقول: "وعن طريق تعلم الإنسان، يتم استعباده وقتل الحرية فيه، فإن سادته لا يسعون إلى توسيع نباهته، ولكنهم يشربونه فهمًا جديدًا، حتى صار التهذيب عبارة عن إفساد الذهن وتضليل القوة الحاكمة، فالأستاذ لا يعرض تعليمه ليؤخذ اختيارًا، ولكنه يوجبه ليحمل اضطرارًا، وبذلك تأيدت الأغلاط، واستمرت الجهالة على مرور الأيام" [٢].

وهكذا يمكن وصف الفرق بين مفهوم التعليم كخبرة من أجل الحرية، ومفهوم التعليم كوسيلة للسيطرة، بأنه الفرق بين التعليم الحواري والتعليم التلقيني. وطريقة التعليم التلقيني هي

---

* مفكر سوري كاثوليكي.

التي تعد الإنسان المروَّض، وتخدم ظروف القهر وتعمل على ترسيخها. وانظر إلى طرق التعليم التي اتبعها المسلمون منذ أجيال وأجيال، تجدها وسائل تلقينية بحتة غير مسموح فيها بالحوار والمناقشة. إذ يعتبر فيها الحوار وتقليب الآراء على أوجهها من قبيل الصفاقة والاجتراء، فكل ما يقوله "الفقيه" ، وهو أيضًا مروَّض تعلم بأسلوب تلقيني غير حواري، هو من قبيل المسلمات التي لا تحتاج إلى إثبات، ومن غير الممكن مناقشتها، فضلا عن تخطئتها. فانكمش العقل المسلم وتم اعتقاله بعد القرن الرابع الهجري، إذ تم اعتبار كل منجزات السلف منجزات مقدسة لا يجوز نقدها أو الخروج عليها، واعتبر المنهج الحواري منهجًا اجترائيًّا لا يجوز أن يأخذ به مسلم صادق الإيمان. وفى مثل هذا المناخ يترعرع التمذهب والتعصب والتحجر. لذلك لم يتواصل العطاء العقلي والفكري للعقل المسلم مثلما كان عبر القرون الأولى "القرن الثامن الميلادي والتاسع والعاشر"، فالجدال والمناقشة هما وسيلة إنتاج وتمحيص الحقائق في منهج التعليم الحواري، ويثمران أفضل النتائج خصوصًا في ظل الحرية التامة، فمن شروط الحوار التسليم بعدم احتكار الحقيقة، وأن استكشاف العالم

ليس من حق الصفوة وحدهم، بل يسع الكل البحث عنها، وأن الحوار في حد ذاته لا يعني تهديد ذات المحاور أو الحط من مكانته فيما لو أفضى الحوار إلى خلاف ما يعتقده، فالحقيقة ليست حكرًا على أحد وما اعتقده قد يكون صوابًا أو خطأ، وكذلك معتقد الآخر، والحوار هو الآلية الفاصلة في تمحيص الخطأ والصواب وتقليب الأمور على أوجهها كافة. ومن يمنعون الحوار هم في الحقيقة لا يستهدفون سوى فرض الحقيقة التي يعرفونها على الآخرين.

ومع قصور العقل البشرى، لا تتولد الحقيقة إلا من اختلاف الرؤى وتباين الحجج، والصواب لا يظهر إلا بالموازنة بين رأيين متعارضين، "وإطلاق الحرية التامة للغير في معارضتنا هو الشرط الجوهري لا يسوغ افتراض الصواب فيما نراه من الآراء حتى نستطيع العمل بموجبها، وبدون هذا الشرط لا يستطيع الإنسان أن يكون على ثقة بصحة رأيه وصواب اعتقاده، فالإنسان قادر على تصحيح خطئه بالمناقشة والتجربة، فالتجربة وحدها لا تغني شيئًا، بل لابد من المناقشة لأنها تفسر معاني التجربة، فالآراء الكاذبة لن تلبث أن يتضح شرها متى عرضت على نار التجربة [٣].

وفى أثينا "كان جو الحرية العجيب الذي تتمتع به الـــنظم الإغريقية يضفي أهمية كبرى على المهـــارة فـــي المناقشـــة والجدال. إذ لم يكن البت في الأمور حقًّا لملك أو كاهن، بـــل كان بيد جمعيات الشعب أو الزعماء. ومن ثم غدت الفصاحة والاقتدار في الجدل مزايا مرغوبة ومطلوبة. ونشأت طبقـــة من المعلمين، إنهم السفسطائيون الذين تعهدوا بإذكاء مواهب الشباب في هذه الفنون. بيد أن المرء لا يســـتطيع أن يفكـــر دون مادة لفكره، ومن ثم جاءت المعرفة في أعقـــاب فنـــون الكلام. وبرز سقراط كناقد قدير للجدل الرديء، واجتمعـــت حول سقراط طائفة من الشباب الأذكياء. وانتهى الأمر بإعدام سقراط بتهمة تكدير عقول الناس (٣٩٩ ق.م)، بيد أن تكدير عقول الناس استمر على الرغم من تنفيذ الحكم فيه، وواصل تلاميذه الشباب أداء رسالته[٤]".

وإذا لم ينجح التعليم في إيقاظ وعي المتعلم وحفزه علـــى تطوير ظروفه ومجتمعه وتدريبه علـــى الفهـــم والاســـتنباط وإدراك العلاقات بين الأشياء والأحداث، يكون قد حاق فشل ذريع بأهداف العملية التعليمية. ولا تتم توعية الناس بمجـــرد شرح الأحوال وتفسير الواقـــع، وإنمـــا يجـــب محـــاورتهم

لتبصرتهم بالأدوار التي يمكنهم الاضطلاع بها، ومساعدتهم على ممارسة النقد الذاتي. ويتسع الخرق على الراتق إن تبلد إحساس الناس فلم يكتشفوا القهر الذي استغرقهم، وزيف الواقع الذي يزينه لهم قاهروهم. لذا ترى، طوال تاريخنا، المساجد معطلة عن أداء دورها كمنبر للحوار والجدل وتبادل الآراء والنقد وكانت هذه المساجد – أيام الزمن الجميل – أيام الخلافة الراشدة وقبلها، منابر للحوار والمشاورة. أما في ظل الاستبداد اقتصر دورها على الدعاء لولي النعم، وتلاوة الخطب العصماء التي يسبح فيها وعاظ السلطان بمناقبه. كما اضطلع عُتهاء وهُبّل المتصوفة في المساجد والخانقاوات بقسط وافر من تزييف وعي الناس وتضليلهم، الأمر الذي أدى في خاتمة المطاف إلى استئناسهم.

"وفي العصر المملوكي كانت الحياة الفكرية والعقلية إفرازًا لتأثير التصوف، حيث دارت الحركة العلمية بين شرح وتلخيص ونظم للمتون، وإعادة شرح التلخيص والمتن دون ابتكار أو تجديد، وحيث فرض التصوف نفسه علمًا بين المناهج، وحيث دارت الحياة العلمية في المؤسسات الصوفية، وحيث تصوف العلماء وتقهقر مستواهم الفكري وطورد

المجتهدون منهم ممن تجاسروا على الاعتراض على الصوفية. وبنفس القدر الذي ازداد فيه تقديس الأولياء الصوفية الأميين!!! كان تقديس المجاذيب أكبر ما يعبر عن احتقار العصر المملوكي للعقل(٥)". وكان ذلك في الوقت الذي عرف فيه الغرب الجامعات والدراسات المنظمة والمقررات العلمية المحددة، ومنح الإجازات العلمية، بينما كان نظامنا التعليمي متخلفًا، تلقينيا في أساسه، يعتمد على قيام الشيخ المعلم بتلقين الدروس الدينية لتلامذته، ثم يجيز هذا الشيخ نفسُه تلاميذه كي يقوموا بتدريس ما تعلموه. وفى الوقت الذي تأسست فيه جامعات الغرب: جامعة بولونيا في إيطاليا سنة ١٠٨٨ ميلادية، وجامعة باريس بفرنسا في سنة ١١٢٠م، وجامعة نابولي في إيطاليا في سنة ١٢٢٤م، كان التعليم في بلادنا في أحسن حالاته في الكتاتيب، حتى وإن قيل إن الجامع الأزهر (٩٧٢ م) هو أول جامعة في العالم، إلاّ أن التعليم فيه كان مقصورًا على العلوم الدينية، ولا تدرّس فيه العلوم العقلية على غرار جامعات أوروبا المذكورة، كما لم تكن طريقة التدريس به، ومنح الشهادات العلمية تتم على

غرار ما كان يحدث في هذه الجامعات بل كان التعليم فيه تلقينيًّا يعتمد على الحفظ والتلقين.

"وقد اعتمد النموذج الإسلامي للمدرسة على نقل المعرفة عن سلسلة من الرواة والسلطة الشخصية للشيخ أو الأستاذ، فليست هناك شهادة من هيئة، وليست هي محصلة أو تقييم عدد من الأساتذة، ولا درجة بكالوريوس أو دكتوراه. أما في الجامعات الأوربية، فكان يتم منح شهادة درجة الليسانس عن طريق رئيس الجامعة فقط والعميد بعد أن يؤدي الطالب امتحانًا في كليته. هذا الامتحان غير موجود في المدرسة لأسباب كثيرة منها أنه لم تكن هناك كلية، وإنما مجرد أساتذة كل منهم ينقل مؤلفات سبق أن تلقاها بعد أن يملي إلى جانبها مؤلفاته الخاصة...، وعندما انتشرت حركة تأسيس الكليات "المدارس" في العالم الإسلامي في القرن الحادي عشر الميلادي، عينت كل مدرسة أستاذًا ينتسب إلى مذهب فقهي، وذلك يعني أن المدرسة قد أصبحت معهدًا لتدريس وجهات نظر شرعية[٦] "وكان التعليم يعني حفظ كم من المعلومات التراثية دون تمحيصها أو انتقادها".

ويحتفي القرآن الكريم بمنهج التعليم الحواري الذي يدعو فيه الإنسان إلى النظر والتفكير والتأمل، والتدرب على رد الظواهر إلى أسبابها، وتدريب العقل على طرح الأسئلة، وتعليم المسلمين كيفية تدبر الواقع وإقامة علاقة حوارية مع النفس والآخر، الأمر الذي مكّنهم من إنشاء وامتلاك قدرة على التأمل والملاحظة والفهم والتأويل، لذا لم يكن غريبًا أن يبتدع المسلمون المنهج التجريبي في البحث العلمي الذي قامت عليه النهضة العلمية الحديثة بعد أن اقتبسه الغرب منا، فذلك كان إفرازًا حتميًّا لمنهج التفكر والنظر الذي حض عليه القرآن الكريم. فديننا الحنيف هو الذي جاء بآليات هذا المنهج الحواري لتربية العقل، وما الشورى والدعوة إلى النظر والتفكير إلا بعض مكونات هذا المنهج، "إن ثُمن آيات القرآن الكريم – أي حوالي ٧٥٠ آية – تحث المؤمنين على دراسة الطبيعة، والتفكير، واستغلال العقل فيما ينفعهم، وعلى جعل الجهد العلمي جزءًا من حياتهم(٧)". والكارثة أن المسلمين أغفلوا هذا المنهج إبّان صراعاتهم، فأضفت كل طائفة من الطوائف المتنازعة والجماعات المتناحرة الإسلامية، وما أكثرها، قداسات دينية على مواقفها، مما يعني نفي صفة

الدين والقداسة عن رأي الطائفة الأخرى، فاشتعلت الصراعات التي أراد البعض توجيهها باطلا لتحقيق أطماع سياسية وغيرها.

ولا شك أن الصراعات المذهبية والخلافات العصبية هي من تداعيات تفويض هذا المنهج الحواري. وكان تعليمنا في معظمه، بعد أفول عهد النهضة العلمية الإسلامية، معيناً في المقام الأول بالعلوم النقلية "الدينية"، وكانت طريقة التعليم تلقينية، إذ لا محل فيها للحوار. فمادة هذه العلوم مقدسة لا يجوز غير قبولها.

وانسحبت هذه الطريقة، فيما بعد، على العلوم العقلية "غير الدينية" والتعليم بشكل عام، إذ أصبح المنهج التلقيني هو الطريقة التعليمية المتبعة لإبطال فعالية العقل المسلم ثم اعتقاله فيما بعد، الأمر الذي انتهى بترويض المسلمين واستئناسهم كما تُستأنس الوحوش الضواري التي يؤتى بها من الغاب ليعتلي الأطفال ظهورها في السيرك دون خوف أو رهبة.

"وعندما نؤرخ لواقعنا الفكري، نجد أن كل قطاعات حياتنا الفكرية تستلهم العقل المسالم، وهو العقل الذي يفكر دائمًا في

إطار من المألوف للناس، لا يصدم عرفًا شـــائعًا وإن كـــان مخطئًا، ولا يتعارض مع رأي ذائع بالغًا ما بلغ فساده. وهذا، وإن كان أدعى إلى الاستقرار، يعوق التطور ويمنع التجديد. لذا فالجامعات عندنا تــذكرنا بالجامعــات الأوروبيــة فــي العصور الوسطى، من حيث إنها كانت تتــوخى مــا ســموه "بالتعليم السلمي"، وهو الذي كان يتمشى دائمًا مع اتجاهــات الكنيسة التي كانت تعد من أعلى السلطات الأوروبية في تلك العصور. وعلى هذا النهج تسير كل أجهــزة إعلامنـــا مــن صحافة وإذاعة وتلفزيون وما يعرض في المسارح والسينما، وما يطرح في الأسواق من كتب – ولا تشذ عن هذا جميــع المؤسسات الثقافية في مصر، وكلها – في الأغلب والأعم – تقاد ولا تقود، وتساس ولا تسوس. فكيف بالله يكون للعقل – بعد هذا كله – دور فعال في حياتنا الفكرية المعاصرة[٨] ".

ولما كان المستبد ينظر إلى الحوار على أن فيه شيئًا مــن الندية بين المتحاورين، لذا رفض أن يتحاور معه أحد، نفيًــا لشبهة الندية مع من سواه من الرعية، ورفضًــا لتجــاوزهم الموضع الذي ارتآه لهم وهو أن يكونوا مجرد أشياء أو أنعام في حظيرته، حتى أن مستشاري المســتبد كــانوا يســدون

المشورة إليه، إذا اضطروا لفعل ذلك، على وجل واستحياء، حتى لا تُرى على أنها محاورة ونقاش.

ويعمد المستبدون إلى تجهيل الناس، ولا يتحمسون لمحو أمية العامة، "فمن السذاجة أن نتوقع من القوة المستبدة أن تقوم بمهمة تعليمية تؤدي إلى تحرير الإنسان، فهي – أي الصفوة – ترى أن المشروع التعليمي إذا أتيح للعاملين الفقراء، قد يكون متعارضًا مع أخلاقياتهم وسعادتهم، لأنه يعلمهم كراهية أنفسهم بدل أن يعلمهم كيف يصبحون زراعًا وعمالا ممتازين، وبدلا من أن يعلمهم الخضوع، فإنه يعلمهم الجنوح، وفى الدول الصناعية يعلمهم قراءة منشورات التمرد ومطبوعات المعارضة. وسيجد المشرعون أنفسهم بعد بضع سنوات بحاجة إلى استخدام القوة ضدهم. وما تريده الصفوة "المستبدون" هو أن يظل الناس غير قادرين على التفكير. ومن البداهة أن نقول إن السيطرة تستوجب قطبين أحدهما يسيطر والآخر يُستغل، وليس من سبيل إلى تصحيح هذا الواقع إلا بالثورة التي تستهدف التحرير، والثورة تستوجب ظهور طبقة من القادة تصنعهم المحاولة والتجربة [٩]".

فالوعي والاستنارة يجعلان الناس أقل ميلا للامتثال والطغيان وأكثر استعدادًا لمناهضة الاستبداد والظلم.

وفى وقت الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م، كان العدد الأكبر من الفلاحين وأبناء الطبقات الشعبية أميين، وعدد الذين يعرفون القراءة والكتابة من سكان القاهرة هم ربع عدد الذكور، وإذا كان عدد سكان القاهرة عندئذ حوالي ٢٥٠ ألف نسمة، الذكور البالغون منهم ٩٩ ألف نسمة، ما يكون عدد المتعلمين منهم حوالي ٢٥٠٠٠ أي نسبة الأمية حوالي ٩٠٪. وكان الجامع الأزهر هو الجامعة الوحيدة في مصر، ولا يدرّس بها سوى العلوم الدينية.

وقد نجحت السياسة التعليمية والتي وضعها كرومر في مصر "في إعداد طائفة من الشبان المصريين لشغل بعض وظائف الدولة غير ذات خطر، واستطاع أن يخرج آلات صماء ليس عندهم شيء من الجرأة أو حرية الرأي، والقدرة على الابتكار أو تثقفوا ثقافة محددة.. وملئت أدمغتهم بمعلومات كثيرة غير مفيدة في حياتهم،.. وجل اعتمادهم أثناء دراستهم على الاستظهار والحفظ، ولا على القوى العقلية السامية الأخرى من تعقل وموازنة وابتكار واستنباط،

فالطالب المصري يعتمد في تحصيله على ذاكرتـــه وعلـــى التكرار الآلي للحقائق المحفوظة لا على ذكائه وتفكيره، فينشأ عن ذلك ضيق أفقه وجهله بالحوادث المعاصرة (١٠)".

ويدين مستر كاربنتر رئيس التفتيش بـــوزارة المعـــارف المصرية سنة ١٩١٨، يدين دنلوب فيقـــول: أفســـد دنلـــوب التعليم المصري، إذ لم يخرج هـــذا التعلـــيم ســـوى مجـــرد موظفين. هل ترى فرقًا كبيرًا بين خريجي مدارسنا وجامعاتنا أمس واليوم؟

إن تفشي ظاهرة الدروس الخصوصـــية نتيجـــة حتميـــة لتهافت النظام التعليمي، وهي دليل إفلاس المؤسسة التعليمية، وفشل المدرسة في أداء دورها، وكذلك الجامعة التي أصبحت مجرد مدرسة ثانوية مزدحمة، وغياب دورها فـــي تـــدريب العقول وإجراء البحوث وإمداد الصناعة بحلـــول لمشـــاكلها، وانعدم تأثيرها في الحياة الثقافية والعقلية بشكل عام.

ولما كان من المعلوم أنه لا يجوز للتاجر، فـــي معـــرض تقييم تجارته، أن يقول إنه أنفق عليها كذا وكذا، بل ينبغي أن يقول إنه ربح منها كذا، فالربح لا التكلفة هـــو معيـــار رواج التجارة أو كسادها، وعليه فيكون من المغالطات غير المقبولة

أن يُقال في معــرض تقيــيم، أو مــدح النظـــام التعليمـــي أو نفي الفشل عنه، أن نقول إنه أُنفق عليه كذا وكذا، وإنمـــا يجب أن يقول لنا أحد ما هي نتيجة هذا الإنفاق، وهل أثمـــر لنا هذا النظام التعليمي أجيالا ممن يحسنون استخدام عقولهم في البحث العلمي والإبداع والنقد، أجيالا تحسن النظـــر فـــي تقييم واقعها، وهل أفرز لنا النظام التعليمي تلاميذ مثقفين، أم طلبة جاهلين تنخفض مستوياتهم الثقافية انخفاضا مزريًا فـــي بعضه، ومضحكًا في بعضه الآخر، وإن كانت تلك حصـــيلة نتاج النظام التعليمي فالأمر، بحق، كارثة، وتعظم الكارثة إن كنا فعلا ننفق تلك الأموال الطائلة على هذا النظـــام الفاشـــل الذي تكون هذه هي مخرجاته ونتائجه.

وقد يجيبك بعض المغالطين بأن "أمتنا بخير"، فمنا زويل، والباز، ومجدي يعقوب، نعم هم زهور أبنـــاء هـــذه الأمـــة وموضع فخرها، ولكن يجب أن يكون لدينا المئات أمثـــالهم، فنسبة العلماء في إســـرائيل ٧٦ عالمًـــا لكـــل عشـــرة آلاف شخص، وإذا افترضنا أن منظومة التعليم في بلادنـــا قـــادرة على إفراز علمائنا بنفس المعدل الإسرائيلي، لكانت مخرجات نظامنا التعليمي في مصر أكثر من نصف مليون عالم وكان

في العالم العربي ما يزيد على المليونين والربع مليون من العلماء.

لذا فلا فائدة تُرجى من مواصلة الثناء على نظمنا التعليمية، والادعاء بأن مردودها مُرض، أو الزعم أن لدينا معاهد موثوقة للبحث العلمي، والزعم بأنه ليس في الإمكان أفضل مما هو كائن، فما نخدع إلاّ أنفسنا، فقد حان أوان مواجهة واقعنا العلمي التعليمي والصناعي والزراعي مواجهة صريحة بلا مراوغة أو تضليل، فنقول إن النظم التعليمية في عالمنا الإسلامي متخلفة ومهترئة، إذ يتلاشى مردودها عند أول احتكاك عملي مع سوق العمل، وإننا نفتقد مؤسسات فاعلة للبحث العلمي يكون لها مردود حقيقي، ولماذا فشلت مؤسساتنا البحثية في حل أبسط مشكلاتنا، وهى مشكلات أصبحت مُتحفية في بلاد أخرى، مثل مشكلات إنتاج رغيف الخبز، وزراعة القمح، وتدوير القمامة، وصناعة سائر ما نحتاجه من أشياء أساسية؟ فإسرائيل تصنع الطائرات والصواريخ، وهى ثالث دولة في العالم مصدّرة لتكنولوجيا المعلومات، إذ صدرت ما قيمة ٦,٧ مليارات من الدولارات في سنة ١٩٩٩. وبلغ حجم الإنفاق على التعليم

ما قيمته ٦,٦٪ من الناتج القومي الإسرائيلي سنة ١٩٩٩، وفاق هذا المعدل ما أنفقته أمريكا إذ بلغ معدل الإنفاق الأمريكي ٥,٣٪ من الناتج القومي، وما أنفقته اليابان بلغ ٣,٨٪ في نفس السنة. وفى الوقت الذي يزيد فيه عدد الأميين في الوطن العربي على ٧٥ مليون أمي – أمية أبجدية – ناهيك عن الأمية العلمية والثقافية وأمية استخدام الحاسوب (الكمبيوتر)، فإن هذه النسبة لا تتجاوز ٢٪ في بلد مثل يوغوسلافيا السابقة، ١٪ في اليابان. وتنعدم الأمية تمامًا في بلاد ليست من العالم الأول المتقدم مثل تركمانستان. أما الأمية الثقافية والتكنولوجية، فبلغنا فيها حدودًا لا يتجاوزها أحد غيرنا.

"وتقوم المدرسة التقليدية بدورها كاملا في الإبقاء على النظام الاجتماعي القائم. فالطبقات الاجتماعية المحظوظة التي بيدها السلطة السياسية هي التي ترسم السياسة التعليمية لتحقيق هذا الهدف. أي أن التعليم يتحول إلى وسيلة لفرض الطاعة على الناس، وهو ليس إلا إحدى الأدوات التي تستخدمها السلطة لحمل الناس على الطاعة والقبول بالنظام القائم، فالمدرسة التقليدية تعوق الحركة التقدمية للمجتمعات

الفتية، وهى حجر الزاوية في البناء السياسي – الاجتمـــاعي القابل للتبعية الاستعمارية، والعاجز عـــن انتهـــاج طريـــق التحرر المستقل. وتتوهم بعض الجهات التعليمية المسئولة أن زيادة عدد المدارس هي الحل الكامل للتنمية القومية(١١)".

ولقد ساعد النظام الاقتصادي التجاري والرأســمالي فـــي الغرب على دفع العلم الغربي، بالإضافة إلى حالة الازدهـــار الاقتصادي بعد الكشوف الجغرافية وما ترتب عليها من إفقار للمسلمين بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح.

ولم يعرف المسلمون نظام الجمعيات العلمية الذي عرفـــه الغرب قبلهم بقرون.. وفى نهاية المطاف لم ينتفعوا بـــالثورة الصناعية، فضلا عن عدم المشاركة في صنعها.

وكان سوء النظام التعليمي وعـــدم مواكبتـــه لمتطلبـــات العصر، هو المسئول، إلى جانب عوامل أخرى، عن غيـــاب ذلك النمط من المبدعين والعلماء والمفكرين، ومسئول عـــن إفراز نوعية باهتة من العقول السطحية التفكير التي لا تصلح للأخذ بزمام أمة تطلب لنفسها مكاناً مرموقاً تحت قبة السماء، وكذلك فإن الانشغال الدائم للأمة والفرد حرمهما من نعمـــة الاسترخاء والتأمل اللذين يسبقان الفعل الإبداعي الذي يمثـــل

قاطرة التجديد والتطوير، فقد انشغلت الأمة بحروب متصلة طوال تاريخها، وتسلط عليها المستعمرون، وانشغل المستضعفون بلقمة العيش وسط عذابات الفقر والجهل والمرض والقهر فانطفأ سراج العقل والعلم، وغرقنا في ظلام دامس قرون وقرون.

وفى عصر العز العلمي للمسلمين أيام العباسيين، تحرر العلماء من سلطان الكتّاب الأوائل الذين أخذوا عنهم من سائر الأمم السابقة: إغريق وهندوس وفرس وغيرهم، ثم ابتدعوا منهج البحث العلمي، وهما أمران لم يتوافرا للغرب إلا في عصر النهضة الأوروبية، ولم ينجح العرب والمسلمون في مواصلة استثمار هذا المنهج بسبب غياب نظام تعليمي راسخ على غرار النظام التعليمي الغربي من جامعات ودرجات علمية (بكالوريوس وماجستير)، كما أتيح الالتزام السياسي من قِبل الحكام باحتضان النهضة العقلية والتعليمية على غرار ما حدث أيام جعفر المنصور، وهارون الرشيد، والمأمون. والالتزام السياسي من قبل الحكام شرط جوهري لتفعيل الجهود الرامية إلى إحداث بعث علمي وتعليمي للأمة. ومنذ حوالي خمسين سنة مضت، كلفت الإدارة السياسية

السوفييتية بزعامة ستالين، أكاديمية العلوم بتحقيق التفوق في جميع العلوم، ومنحت علماء هذه الأكاديمية مرتبات كبيـــرة وامتيازات عديدة. ويبلغ الآن عدد العلمـــاء العـــاملين فـــي معاهدها أكثر من ربع المليون عالم، الأمر الذي جعل الاتحاد السوفييتي السابق وقتها وأمريكا على قدم المساواة وكفَرســـي رهان في ميدان العلوم.

وينتقد العالم الباكستاني محمد عبد السلام الحـــائز علـــى جائزة نوبل في الفيزياء، انعدام الالتزام القومي برعاية العلوم في بلده في سنة ١٩٥٩، والافتقاد إلى سياسة لجـــذب أذكـــى العقول في بلده لمهنة العلم، (ويرجع السبب الأساســـي لهـــذا القصور – في نظره – إلى عدم قـــدرة الزعامـــة السياســـية والعسكرية على فهم الدور الأساسي للعلم في بناء الأمة. وقد ازداد الوضع سوءًا بسبب المستوى المنخفض وضيق الفكـــر لدى البيروقراطية التي يسيطر عليها من لا يهتمـــون كثيـــرًا بالعلم أو التعلـــيم، المحرومـــون مـــن الشـــعور بالدهشـــة والاستغراب، وكانت البيروقراطية تنظر دائمًـــا إلـــى العلـــم والتعليم على أنهما خدمة غير هامة..، وأن الـــذين يـــديرون السياسة العلمية لباكستان لا يدركون، أو هـــم علـــى الأقـــل

لا يعترفون بوجود مشكلة، وأن إدارة الأنشطة العلميـــة فـــي باكستان قاصرة جدًا في الوقت الحاضر (سنة ١٩٥٩)، فهي تقوم على أناس لا يملكون خبرة ذاتية في العمـــل العلمـــي، وليس لديهم إدراك لطبيعة العلم ودوره في تنمية البلد [١٢]".

ويصدق هذا الكلام تقريبًا على كل بلدان العـــالم الثالـــث المتخلف. ويضيف الدكتور عبد السلام: ومع ذلك، لا داعـــي لليأس، لأن نمو العلم في أعلى مستوى ممكن لا يحتاج إلـــى أكثر من جيل أو جيلين على الأكثر، كما يبدو ذلك من أمثلة أمريكا والاتحاد السوفييتي واليابان والبرازيل والهند والصين وكوريا [١٢].

وصدق حدسه، إذ تمكنت باكستان الآن من إنتاج القنبلـــة النووية بعد أقل من جيل واحد من الوقت الذي قال فيه هـــذا الكلام.

ويحتاج البحث العلمي إلى إنفاق أموال طائلة، لـــذا فـــإن إهمال أولي الأمر في الدول البترولية الغنية، فـــي اســـتثمار عوائد النفط في إنشاء مؤسسات بحثية ترعى البحث العلمـــي واستنبات ما يمكن وصفه بأنه استنبات وطني للتكنولوجيـــا، يرقى إلى مستوى الخيانة العظمى لأوطانهم "وحتى عوائـــد

النفط لا تغير شيئا من الوضع الراهن، لأن سياســة الحكــم وسياسة العلم مرتبطتان ارتباطًا وثيقًا – لسوء حظ العلماء – يقصد ضرورة الالتزام السياسي برعاية العلم والعلماء مــن أجل إحداث نهضة علمية. إذ تسود المنطقــة ديكتاتوريــات حسنة النية أو سيئة النية، من شأنها تعقيد الأمور في وجه أية محاولة لترسيخ جذور العلم فــي البلــد. لــذلك لــيس مــن المستغرب أن يستمر نزيف الأدمغة "هجــرة العقــول" إلــى البلدان الصناعية في إضعاف الحياة الفكريــة فــي الشــرق الأوسط [١٣]".

ولما كان المال ضرورة للبحث العلمي والتكنولوجي، لــذا عمد أعداؤنا إلى إفقارنا، فشغلونا بالحروب – التــي كلفتنــا الكثير – مع إسرائيل، ومع بعضنا البعض، واستنزفوا أموال النفط باستمالتنا لاستثمارها في بلادهــم، أو الســماح لمــن ينهبونها بإيداعها في بنوكهم، حيث يتعــذر اســترداد هــذه الأموال مرة أخرى.

ولا يُعد المجتمع متقدمًا بنبوغ بعض أفراده فقــط بينمــا يغشى جموع الناس الجهل والأمية. ولا تُعد الأمــة متقدمــة ما لم يكن لها مردود فكرى وعقلــي يشــارك فــي صــنع

مستقبلها، ولا يعوّل على إنجازات حفنة من الأفراد، فالأمة، أي أمة، لا تعدم وجود بعض العقول من أبنائها، وإنما يقاس تقدم الأمم بأن يكون ازدهار العقل وإجلاله ظاهرة عامة تلقى قبولا وتسليمًا ضمنيًّا من الجميع فعلى الرغم من أن مدة الحكم المملوكي خلت من الإبداع العلمي، وساد البلاد الأمية والتخلف، إلا أن الأمة لم تعدم بعض نوابغ ظهروا فرادى كالنجوم السواطع في السماء الحالكة، مثل ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع، والطبيب ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى، والدميري صاحب أشهر كتاب في علم الحيوان.

ومع أفول حضارة المسلمين وتسليم القيادة العلمية والحضارية للغرب، تناقص عدد العلماء المسلمين باطراد. فعلى سبيل المثال، بلغ عدد علماء الرياضيات والفلك في القرن التاسع الميلادي ٢٢ عالما، وأصبحوا ٣٨ عالما في القرن العاشر، ثم ٣٢ عالمًا في القرن الحادي عشر، ثم ١٦ عالمًا في القرن الثاني عشر، ثم ١٣ عالمًا في القرن الثالث عشر، ثم ٥ علماء في القرن الرابع عشر، ثم ٦ علماء في القرن الخامس عشر، ثم ٣ علماء في القرن السادس عشر، ثم ٤ علماء في القرن السابع عشر، والتعويل هنا على

العلماء أصحاب المردود العقلي والإبداعي العلمي الذي يمكن أن يتحول إلى إبداع تكنولوجي في خطوة لاحقة. فالعلوم تتفاوت درجات تأثيرها في الدفع الحضاري، فالعلوم التي ولّدت إنجازات تكنولوجية هي الرياضيات والكيمياء والفيزياء والفلك.. وغيرها، وهى التي مهدت الطريق إلى الثورة الميكانيكية ثم الثورة الصناعية التي اعتبرت انقلابا نوعيًّا هائلا أثر في مسيرة الحضارة الإنسانية، بينما هناك – علوم أخرى – على أهميتها – غير ذات تأثير مباشر في دفع عجلة الإبداع التكنولوجي الذي تقاس به مدنية الأمم وقوتها، كالعلوم الإنسانية، وهى العلوم التي ركز عليها الاستعمار في مدارسنا أثناء سيطرته على مقدراتنا ونظم التعليم في بلادنا كي يحُول دون إحداث تقدم حقيقي يساعدنا على الانفلات من قبضته. ويجدر الذكر أن ثمة نظامين متوازنين للتعليم في البلدان المتقدمة، أحدهما للتعليم المهني ويلتحق به خمسون في المائة من إجمالي عدد الطلاب، ومقرراته مقررات تقنية وحرفية زراعية وصناعية، والنظام الثاني هو النظام الثانوي العام الذي يؤهل للتعليم الجامعي في العلوم والهندسة والطب والآداب. وداخل إطار التعليم الجامعي هذا تتماثل نسبة

طلاب العلوم والهندسة مع نسبة طلاب الآداب. أي أن طلاب الآداب في الدول المتقدمة يمثلون ٢٥٪ فقط من إجمالي عدد الطلاب، في حين أن هذه النسبة تزيد زيادة هائلة في بلدان العالم الثالث الذي لا يوجد به نظام موثوق للتعليم المهني الذي لا يزيد فيه عدد خريجيه على عشرة في المائة من إجمالي عدد الخريجين، وتسهم هذه الندرة في التخلف التقني والبطالة. وقد حاز الإنجليز قصب السبق في إحداث الانقلاب الميكانيكي والثورة الصناعية إذ توافر لهم عدد كبير من العمال الحرفيين المهرة الذين برعوا في الأعمال الميكانيكية وذلك طوال ستة أجيال كاملة.

لذا لا أتحمس للرأي القائل بأن الإرهاصات الأولى لنهضة مصر المعاصرة كانت قبل عصر محمد علي باشا إذ بدأت بالبغدادي والجبرتي وابن عبد الوهاب والزبيدي والشوكاني والشيخ حسن العطار المغربي المصري (١٨٣٨م) الذي ألف في الطب والفلك، ورضوان الرزاز المصري (١٧١١م) الذي كتب في الفلك والرياضيات، فكلهم – عدا الأخيرين – كانوا مهتمين بعلوم اللغة والدين والتاريخ، وأرى أن تلك محاولة لنفي تأثير الحملة الفرنسية – غير المقصود – على

إحداث الصدمة والدهشة للعقل المصري الغافل وتنبيهه إلى سبْق الآخرين له. وأخالف الرأي الذي يحاول التقليل من أثر محمد علي باشا في الاضطلاع بالدور الرائد في بعث نهضة مصر الحديثة في القرن التاسع عشر. فمحمد علي تمتع بمهارات قيادية نادرة وقدرات إدارية فريدة دفعت بالحركة التعليمية والعلمية للأمام. كما أن الالتزام السياسي، وهو شرط أساسي لاحتضان البعث العلمي للأمة، الذي أتاحه محمد علي، كان سببًا مباشرًا لهذه النهضة.

وليس من شك في أن البون الحضاري الذي يفصل بيننا وبين الدول المتقدمة هو المعيار الأساسي في تقييم مدى فعالية نظم التعليم ومعدلات التنمية البشرية في بلادنا. ولا تعويل إلا على الجهود المبذولة في اتجاه الاقتراب من الدول المتقدمة بقصد اللحاق بها مستقبلا، ولا تعويل على هذه الجهود في حد ذاتها إلا بقدر ما تحققه لنا من الاقتراب من الآخر واللحاق بالدول المتقدمة، فقد نبدل ونغير، ويكون ذلك كحركة حمار الرحى التي لا تنقله من مكان إلى آخر وإنما تدور به إلى حيث انطلق في البداية. ويكون الفيصل في الجهد الذي يقلل المسافة بيننا وبين الدول المتقدمة، وفي

ضوء هذا المعيار نكتشف أننا ازددنا تخلفًا منذ نهضة محمد علي باشا مع أننا قطعنا بعده شوطًا كبيرًا في طريق الأخذ بمستحدثات العصر وتقليد الغرب – فالفارق الحضاري بيننا وبينهم – أي الغرب – لا يزال هُو هُو، بل يزداد اتساعًا في مواضع كثيرة، حتى أنه يصعب، بل قد يستحيل، قيام نهضة على شكل طفرة على غرار ما فعله محمد علي باشا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، إذ تمكن من قطع شوط كبير في اتجاه الاقتراب من الغرب، واصطنع الوسائل التي جعلته في كثير من المجالات ندًّا لهم، فتعاونوا على إعادة هذا العملاق إلى القمقم مرة أخرى. وهذا ما يتعذر علينا تحقيقه الآن دون حشد كل الطاقات المخلصة، وبذل كل جهد ممكن للأخذ بالأسباب التي تحدث نهضة حضارية تضعنا في موقع شديد القرب من الغرب على غرار ما حدث أيام محمد علي باشا وفى نفس المدة القصيرة التي حدثت فيها. ويمكن – طبعًا – بل يجب، البدء في التحرك والسعي صوب تقليل تلك الفوارق. ولكن يتعين علينا المضي بسرعة مذهلة تفوق سرعة نمو الآخرين، حتى يتسنى لنا تقليص المسافة بيننا وبينهم.

ولابد من تهيئة مناخ البحث العلمي والإبداع العقلي، فالمؤسسات البحثية إلى جانب المؤسسات التعليمية الفعالة، هي وحدها المرشحة للقيام بإخراجنا من دائرة التخلف، ولابد من مشاركة الإعلام في خلق المثال والقدوة التي يتجه إليها الشباب بأبصارهم وضمائرهم، أسوة تعمد إلى تفعيل قواهم واستنهاض هممهم، والكف عن توجيه الأضواء صوب النماذج غير الفاعلة التي لا محل لها في وقت شدة الأمة واستنهاض الهمة وحشد الطاقات. فالأمة الآن تحارب معركة وجودها، وتناضل ضد أعداء يريدون إهلاكها، ومن العبث والسفه مواجهة ذلك بنقر الدفوف وهز الوسط والنفخ في المزامير، فالقدوة التي تُحتذى هي العالِم والباحث والتقني والمهندس والمثقف والمبتكر والحرفي وكل من يشارك في إعلاء قيمة العمل والعلم. ومن الأهمية بمكان التنبه إلى تأثير الإعلام في إحلال قيم بديلة سلبية في المجتمع، مثل تعظيم قيمة المال والثراء والكسب، حتى غير المشروع، بدلا من تعظيم العلم والعلماء، فتلك كارثة تعطل المد العلمي وترسخ التخلف.

فبعد هزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانيــة، اعتــرف عقلاؤها بأن هزيمتهم بدأت في المختبر "المعمل" ويتعين على عقلائنا القول بأن أمتنا الإسلامية مهزومــة فــي المدرســة والجامعة والمختبر والمصنع والحقل ومركز البحث العلمي. ولا يكفى تعليل هذه الهزائم بنظرية المؤامرة – على صحتها – إذ ينبغي الإقرار بمساهمتنا الوافرة فــي هزيمــة أنفســنا بأنفسنا. وجامعاتنا لا تنتج أي معــارف جديــدة، ولا تعلــم طلابها سوى القديم، شأنها في ذلك شأن باقي جامعات العالم الثالث المتخلف والتي قد تكون جهود علمائها القليلين مفيــدة في غير بلادهم، وهى متقاعسة – أي الجامعات – عــن أداء أهم أدوارها وهو الاضطلاع بالنشاط البحثي، وإن زعم زاعم بغير ذلك فليدلنا على نتائج بحوثها وأثرها في حل مشــكلات المجتمع، ولابد من الإقرار بأن البحث العلمي لدينا في مأزق شديد ولكي نقيله من عثرته يجب الشروع فورًا في بناء بنية تحتية لتدريس العلوم وإجــراء الأنشــطة البحثيــة، وبنــاء المختبرات والمكتبات العلمية، وتكوين الجماعــات العلميــة الوطنية، والقضاء على الأمية العلميــة، واللحــاق بالأفكــار العلمية الجديدة، ومن الأهمية بمكــان تفعيــل دور الجامعــة

كمؤسسة بحثية فإن الغرب لن ينقل إلينا التكنولوجيا – التي أنفق الكثير للحصول عليها – ما لم تكن من تكنولوجيا الماضي التي تقادمت، ومن يريد تكنولوجيا الحاضر عليه إعادة اكتشافها بنفسه، فالغرب لن يبيع لنا تكنولوجيا الحاضر التي تمثل له الدجاجة التي تبيض ذهبًا.

وليعلم رجال السياسة والسلطان أنه ما من قوة حقيقية دون علم وبحث علمي يولد القدرة التكنولوجية، فالتكنولوجيا هي ابنة العلم. وعندما حاول السلطان العثماني سليم الثالث منافسة الغرب في صناعة المدافع وقع في خطأ طلب التكنولوجيا من دون نقل العلم الذي تقوم عليه هذه التكنولوجيا، وهو الخطأ الشائع الذي مازالت تقع فيه بلدان العالم الثالث إذ تقوم "باستيراد" التكنولوجيا أو شراء المصانع "تسليم مفتاح"، بدون الإحاطة بالقواعد العلمية والتي تولدت منها هذه التكنولوجيا، لذا يتعذر على هذه البلدان تطوير هذه التكنولوجيا إذ جهلت الأسس العلمية التي قامت عليها. وكان السلطان سليم الثالث قد افتتح في سنة ١٧٩٩ مدارس لتدريس الرياضيات والتعدين وعلوم المقذوفات، وجلب من فرنسا والسويد مدرسين للتدريس في هذه المدارس بقصد

مجاراة أوروبا في صناعة المدافع، وهذا طيب، ولكنه اكتفى بذلك دون إحداث قاعدة للبحث العلمي تتولى إحداث تطــوير تكنولوجي يمكّنه من التفوق، فلم يحقق أهدافه المــرادة فــي التفوق على الغرب ومنافســته، وإن اقتصــر الأمــر علــى مجاراته لبعض الوقت.

التعليم التلقيني والتعليم الحواري

٧. باولو فرايري/ تعليم المقهورين.

٨. أديب إسحاق/ الدرر.

٩. جون ستيورات مل/ الحرية.

١٠. هـ. ج. ويلز/ موجز تاريخ العالم.

١١. د. أحمد صبحي/ العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف.

١٢. توبي. أ. هاف/ فجر العلم الحديث.

١٣. د. محمد عبد السلام/ التنمية والتقدم العلمي في العالم الثالث.

١٤. د. توفيق الطويل/ في تراثنا العربي الإسلامي.

١٥. باولو فرايري/ تعليم المقهورين.

١٦. د. أنور عبد الملك/ الشارع المصري والفكر.

١٧. عزيز السيد جاسم/ تأملات في الحضارة والاغتراب.

١٨. د. محمد عبد السلام/ التنمية والتقدم العلمي في العالم الثالث.

١٩. المرجع السابق.

الفصل الثالث

إغلاق باب الاجتهاد

- المطبعة آلة صنعها الكفار ولا يجوز الانتفاع بها.
- استخدام البنادق حرام لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستخدمها في حروبه.
- فتاوى فقهائنا:

* القول بكروية الأرض حرام.

* قيادة المرأة للسيارة حرام

* جواز أن يقتل السلطان الأمراء منعًا لتنافسهم على العرش.

* من لبس "البرنيطة" فهو كافر ومن شرب القهوة فهو كافر.

إغلاق باب الاجتهاد

لقد قطع العقل المسلم مسافة معقولة في بدايـــة العصـــر العباسي "أيام هارون الرشيد وابنه المأمون"، ولكنه تباطأ بعد ذلك وما لبث أن توقف عن المسير. ومن يدقق النظر يـــرى أن هذا العقل يسير الآن القهقرى متوجهًا إلى ماضيه ظنًّا أنه المستقبل. ويمضي الآخرون بسرعة مذهلـــة، إذ تتضـــاعف المعارف الإنسانية مرة كل ١٨ شهرًا تقريبًا في ظل الثـــورة المعلوماتية الجبارة، وليس بمقدورنا الانتفاع بهذه المعـــارف فضلا عن عجزنا عن المشاركة في إنتاجها. لذا فإن التوقف، مجرد التوقف عن السير، يعتبر انسحابًا للخلف فـــي حركـــة تقهقر لن تغفرها لنا أجيالنا القادمة، إذ سنعجز تمامًـــا عـــن اللحاق بالآخرين، ويقتصر دورنا – كل دورنا – علـــى أداء مهام التبعية وأدوار العبيد للأسياد، وكأننا نكرر تاريخنا أيام الظاهرة المملوكية.

وقد انطفأت وخبت جذوة البعث العلمي الإسلامي والعربي ابتداء من القرن الرابع الهجري نتيجة غلق باب الاجتهـــاد، وما صاحب ذلك من ملابسات وظروف عطلت المد العلمي، وإن لم يحل الظلام الدامس تمامًا إلا بعد ذلك بمـــدة ليســـت

بالقصيرة قلّ فيها الإبداع تدريجيًّا، ونقص عدد العلماء ولكن استمرت حركة المد العلمي بفعل قوة الدفع الأولى.

وفي القرن الرابع الهجري حصل التفكك السياسي للدولة الإسلامية، فتفتتت إلى كيانات فسيفسائية، وتعددت الصراعات الدينية، واحتدم الصراع بين السنة والشيعة. بل كثيرًا ما ثارت خلافات مذهبية تافهة في الوقت الذي كانت فيه البلاد مهددة بالهجمات الصليبية، خلافات من نوع: هل يجوز الجهر في البسملة، والترجيع في الآذان، والقنوت في الفجر؟ حتى وصل الأمر إلى استعانة الحنابلة بالعميان الذين كانوا يأوون ببعض المساجد لضرب كل شافعي يمر بهم.

وعاني المفكرون، شأنهم في ذلك شأن عامة الناس، من سوء الأحوال الاقتصادية في القرن الرابع الهجري، حتى أن العالم الواسع العلم يعجز عن دفع أجرة مسكنه ولا يجد ما يأكل، "وكان ذلك نتيجة طبيعية لما تردت إليه البلاد من سوء الأحوال الاقتصادية، حيث تجمعت الثروات والسلطات في أيدي جماعة من الحكام الفاسدين الذين فقدوا كل إحساس بالعدل والاستقامة وتفننوا في إذلال الفقراء، وغالوا في الترف والبذخ [١]".

والكارثة هي أن غلق باب الاجتهاد معناه النفور من كل جديد، والنظر بشك وريبة إلى كل مُبتدع واعتباره بدعة تفضي بصاحبها إلى قعر جهنم. وكان رد الفعل الأول تجاه أي جديد مستحدث هو إبداء الكراهة والنفور دون التروي والنظر في غايات هذا الجديد ودراسة مراميه وأهدافه، إذ عانى العقل المسلم من الاسترهاب والبطش الذي دفعه إلى طلب الأمان وإيثار السلامة، وردد الناس في أمثالهم: "من فات قديمه تاه" وقد فوّت هذا الموقف المتشكك في الجديد، فوت الفرصة على المسلمين من الانتفاع بكثير مما أبدعه الآخرون كما حدث عندما غفلوا عن الانتفاع بالمطبعة، والتي كان اختراعها حدثًا محوريًّا هامًّا في تاريخ العلم والثقافة والكتاب، وأضاع عليهم غير ذلك من الإبداعات التي أمدت الآخرين بالقوة. ففي الوقت الذي ظهرت فيه المطبعة في منتصف القرن الخامس عشر، كان إجمالي عدد الكتب في أوروبا كلها حوالي ثلاثين ألف كتاب معظمها أناجيل وتفاسيرها. وخلال الخمسين سنة التالية زاد هذا العدد إلى تسعين مليون كتاب معظمها في العلوم العقلية وكان المسلمون مشغولين في هذا الوقت بمطالعة كتب الصوفية

والمواظبة على ترديد كفرياتهم في حلقات الذكر التي كانوا يقيمونها في التكايا والخوانق والمساجد. وفى الوقت الذي لم يكفّروا فيه ما جاء في كتب الصوفية من شرك بالله وازدراء التوحيد، وقبلوها مع الحفاوة والتقديس، نظروا إلى المطبعة على أنها آلة صنعها الكفرة ولا يجوز طباعة القرآن عليها! الأمر الذي ألحق أضرارًا فادحة بأمتنا الإسلامية على صعيد العلم والاستنارة. ومنع السلطان العثماني بايزيد الثاني اقتناء المواد المطبوعة في عام ١٤٨٥م، وتكرر المنع من السلطان سليم الأول عام ١٥١٥م. وفى أوائل القرن السادس عشر طبع المسيحيون في أوروبا أول كتاب باللغة العربية. وكان أول استخدام للمطبعة في تركيا سنة ١٧١٦ وطبع بها أول كتاب عربي سنة ١٧٢٨، وسرعان ما أغلقت، وبعد إعادة فتحها كان أول ما طبع فيها كتب التصوف وأهمها الفتوحات المكية لابن عربي!!. ودخلت المطبعة مصر لأول مرة مع الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨، ولكن لم يزد عدد الكتب العربية المطبوعة بها على خمسين كتابًا حتى نهاية القرن الثامن عشر.

وأنصار غلق باب الاجتهاد هم المتخوفون من كل جديــد، وهم عَبَدَة المألوف وأعداء الجديد أيًّا كان. وهم يظنون أنهــم يحتكرون الحقيقة، وأنهم الصفوة التي تختص بالعلم، ومــن سواهم يجهل ولا يعلم، لذا جرّموا إعمال العقل من بعــدهم، وحرّموا النظر إلى الأمور على نحو مغاير لما يرون، فعندما ظهرت المدرسة كمؤسسة تعليمية في القرن الخامس الهجري "لم ترق في أعين بعض علماء المسلمين، إذ كانوا يفضــلون عليها نظام التعليم الحر في الجامع، وتناولوها بالنقد، ولمــا بلغهم بناء المدارس في بغداد، أقاموا مأتم العلم، وقالوا: كان يشتغل به – أي بالعلم والتدريس – أرباب الهمم العالية الذين يقصدون العلم لشرفه وكماله، فيــأتون علمــاء ينتفــع بهــم وبعلمهـــم، وإذ صـــار عليـــه أجـــر، تـــدانى إليـــه الأخساء – جمع خسيس – وأرباب الكسل، ومن هنا هجرت الحكمة (٢)". لقد تم تأثيم الاجتهاد عندما نظر إليه علــى أنــه طريق الابتداع والبدع الذي يؤدي إلى جهنم وبئس القــرار، وأنه مخالفة للفقهاء السابقين الذين أضفوا علــيهم قداســات علمية ودينية تحول دون الإتيان بغير ما جاءوا به.

وامتد الخوف من الجديد وكراهية كل مستحدث حتى طال استخدام الأسلحة العصرية الجديدة، فبعد اختراع البندقية، في زمن كان السيف فيه هو وسيلة القتال الأساسية، شاع استعمال البنادق في بلاد كثيرة، ولم يستخدمها المماليك في مصر والشام وعزفوا عنها واعتبروا استخدامها مخالفًا للسنة النبوية إذ لم يستخدمها النبي ﷺ في قتاله ولا يجوز مخالفة ذلك!! نعم إلى هذا الحد بلغ تجمد العقل، ويصف لنا شاهد عيان وهو ابن زنبل الرمال واقعة رفض السلطان المملوكي قانصوه الغوري الاستفادة من البندقية عندما عُرضت عليه، فقال: "وقد جاء بهذه البندقية رجل مغربي للسلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري – رحمه الله تعالى وقتل قاتله – وأخبره أن هذه البندقية ظهرت من بلاد البندق، فقد استعملها جميع عساكر الروم والعرب، وهي هذه. فأمره أن يعلمها لبعض مماليكه، ففعل، وجيء بهم فرموا بحضرته، فساءه ذلك. وقال للمغربي: نحن لا نترك سنة نبينا ونتبع سنة النصارى، وقد قال مولانا سبحانه وتعالى: ﴿ **إِن يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ** ﴾ فرجع ذلك المغربي وهو يقول: من عاش ينظر هذا الملك وهو يُؤخذ بهذه البندقية. وقد كان

كذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[٣]". ويصف كيف تأثر جيش المماليك ووقع بهم الضرر من هذه البندقية فيقول: "ولا ضرهم – أي المماليك – إلا البندق فإنه يأخذ الرجل على حين غفلة، لا يعرف من أين جاءه، فقاتل الله أول من صنعها، وقاتل من يرمي بها على من يشهد لله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة[٣]". أرأيتم عاقبة أن يتولى سدة الحكم من عَدِمَ القدرات الإدارية ومُنى بقصر النظر ورداءة الرأي، إنه يورد الأمة موارد الهلكة والبوار. وكان المماليك قد أهملوا الأخذ بأساليب العصر وأسلحته بعد أن زال عنهم خطر الصليبيين والمغول، ولم يتحمسوا لاستخدام الأسلحة النارية التي كانت تتسلح بها الجيوش آنذاك، واعتبروا أن الشجاعة والإقدام في القتال من فوق الجواد، وإذ كان يتعذر على الفارس استخدام البندقية من فوق صهوة جواده، لذا لم يتحمسوا لاستخدام هذه البنادق، ولم يقدروا خطورة عدم التسلح بالأسلحة النارية التي مكنت الأوروبيين فيما بعد من فتح البلاد والاستيلاء على الأراضي والمستعمرات.

وبإيصاد باب الاجتهاد بدأ اعتقال العقل العربي، ولم يتم هذا الاعتقال بقرار يصدره حاكم متسلط، وإنما جاء نتيجة

مجموعة من الأسباب والدوافع وترتبت عليه كوارث دمرت مستقبل أمتنا وحالت دون تقدمها. وتجمد العقل المسلم عند حدود ما أنتجه السلف، ذلك الإنتاج العقلي الذي كان وليدًا لظروفهم وملبيًّا لاحتياجاتهم. وراح هذا العقل في سبات عميق بعد تغييبه من مجتمع أصبحت له قيم معرفية أخرى تعتمد بصورة أساسية على اجترار الموروثات وإن لم تناسب العصر، وبفعل تبعية ثقافية للغرب – فيما بعد – بتأثير الهزيمة الداخلية التي أصابت ضمير المسلم. ويتعين علينا الآن إخضاع هذه الموروثات إلى النقد والتمحيص كي نستبعد منها الغث ونُبقي على السمين. فليس من المعقول مثلا أن يتم تحقير العقل بحديث موضوع مفاده أن: "أكثر أهل الجنة من البُلْه"، وحاشا لله أن يقول الرسول الكريم هذا، فمعنى ذلك أن إغفال العقل هو الطريق إلى الجنة، وأن السلامة والهُدى في البلاهة واجتناب إعمال العقل. والبله هم معظم أهل الجنة، أما الكادحون بعقولهم في المختبرات والمصانع ومراكز البحوث، فليسوا من أهل الجنة. اجتراء على الدين واستهزاء بالحق والعقل. تلك الأضاليل المبثوثة في كثير من كتبنا "الدينية" انحرفت بالناس وأثّرت سلبًا على عقولهم وهى تفسر

غفلة هذه الأمة طوال هذه الآماد الطويلة بعد أن صور لهـا "فقهاؤها" الأمور على هذا النحو الدراويشي.

ولما كانت هذه الأفكار السارية، والموروثات المألوفة تقع من ضمير الأمة موضع الرأس من البدن، لـذا يجـب قبـل الحديث عن أي إصلاح أن نشرع فورًا في إعادة النظر فـي هذه الأفكار الأساسية الحاكمة التي تسير الناس، وذلك علـى صعيد التعليم والتدين والسلطة، وقبل تصويب وتمحيص هذه الأفكار والثوابت أو ما نظن أنها ثوابت، لن تسـتطيع هـذه الأمة المضي في الطريق الصحيح أو تجنب الخـروج مـن التاريخ.

ومن الرائع حقًا أن الإسلام الحنيف يحثنا في غير موضع على إعمال العقل والنظر والتبصر، وجاء فقهاء المسـلمين ليصنعوا من تراث السلف وثنًا يتعبدون في محرابه بعـد أن أضفوا العصمة على الفقهاء السابقين والتقديس لآرائهم التـي اكتفوا بها ورأوها صالحة لكل زمان ومكان. وترتب علـى ذلك فقدان العقل وظيفته في العالم الإسلامي الأمر الذي أدى بنا إلى مهاوي التخلف. وإلى جانب فهمنا للكتاب والسنة على ضوء اجتهادات من سبقونا، يجب ألا يقتصر هذا الفهم على

اجتهاداتهم، وألا يكون هذا الفهم مقيدًا بحدود الغابرين، وعلى ألا يكون هناك محاذير يحظر تخطيها إذ لم يتناولها بالبحث آباؤنا الأولون، : ﴿ **مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ** ﴾ "المؤمنون/٢٤". يقول جمال الدين الأفغاني: "نعم إن الفحول الأئمة: أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل، ورجال الأمة اجتهدوا وأحسنوا. ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن [٤]". لذا فلابد من إقرار واحترام مبدأ الحق في إعادة النظر في كل، وأي، موروث. ومادامت العصمة للأنبياء وحدهم، فخليق بنا ألا نستنكف من إخضاع أي رأى للتمحيص، ومادام الاتفاق على أن الثوابت هي القرآن والسنة النبوية، فلا غرابة في الدعوة إلى فحص أي موروث إن اقتضت الضرورة ذلك. وغدا العقل المسلم، بعد استرهابه، قاصرًا عن القطع بحكم جلي إزاء موروثاته التي ظن أنها مقدسة، سواء أكانت موروثات تاريخية أم سياسية. ويبدو ذلك جليًّا، على سبيل المثال، في عجز أحدهم عن إدانة المخطئ في الصراع الذي دار في الفتنة الكبرى، وإن سألت أيهما أخطأ معاوية بن أبى سفيان أم سيدنا على بن أبى طالب "كرم الله وجهه" فإنه يقول لك: معاوية على حق ولكن عليًّا

أحق! فاعجب أن يكون طرفا الصراع على حق، صراع قُتل فيه ألوف المسلمين دون أن يكون هناك مخطئ وراء ذلك. إنه العقل الذي تم تجميده بقداسات وهمية مزعومة. لقد غمط أسلافنا العقل حقه، وكأنما انعدمت حاجتهم إليه.

" وتصدى أبو حامد الغزالي للفلسفة العقلية ممثلا للصوفية والفقهاء، ومن خلفه تعاطف العامة، مما ساعده على إسقاط الاتجاه الفلسفي العقلي، فلم يعد في الساحة إلا الغزالي والتصوف والاتجاه الوجداني طريقًا للمعرفة. وتمت الغلبة النهائية للغزالي والتصوف حين دعا لقفل باب الاجتهاد، وحجر على العقل مناقشة الادعاءات الصوفية، وقرر الصلح بين الإسلام والتصوف في كتابه "إحياء علوم الدين" الذي بعثر فيه بمهارة فذة عقائد التصوف وسط أكوام من الأحاديث الموضوعة بعضها اخترعه الغزالي بنفسه – ثم التأويل للآيات لتشريع التصوف، بالإضافة إلى أسلوبه الوجداني في المواعظ والرقائق، وكتابته أبواب الفقه في الإحياء بمنهج جديد لم يعرفه فقهاء عصره [٥]".

وكان يُنظر إلى علوم الفلسفة بريبة، فتخفّى المشتغلون بها، وحظر نقل ونسخ كتبها، وأُخذت المواثيق الغلاظ على ناسخي الكتب في بغداد بألا ينسخوا كتابًا في الفلسفة.

وتقلصت حدود إنجازاتنا الحالية، وتراجعت فعالياتنا إلى إنجازات تمت في أزمان سابقة، إلى بناء الأهرامات وانتصارات حطين وعين جالوت. وتوقفنا عند هذا الحد اكتفاء ورضى باجترار أمجاد الماضي، والتفاخر بمنجزات الأجداد والآباء الأولين، والتغني بها في الإذاعة والتليفزيون، بينما ينطلق الآخرون من حولنا بسرعة الصاروخ إلى آفاق جديدة سبق تحديدها بدقة ومهارة ضمن استراتيجيات متكاملة ورؤى استشرافية يقرعون خلالها المستقبل ويخططون له ليصنعوه، عمدًا، عن معرفة ودراية والفرق بيِّن بين الاعتزاز بماضي أمتنا ومنجزات السلف، وبين الافتتان بهذا الماضي وتقديسه، فنحن لا نرى سوى اجتهادات السابقين، مع عظمتها، ونسقط حقنا في إعادة النظر في هذه الاجتهادات في ضوء المستجدات، وندع هؤلاء السلف يصادرون حقوق الخلف في سن قوانينهم، وصياغة أفكارهم وفقًا لظروفهم التي تختلف حتمًا عن ظروف أجدادهم، وهذا الموقف لهو

عين الحجر على الفكر وتكبيل العقل، وكأننا نردد مع شاعر أهل التقليد الأعمى وأتباع السلف :

وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف

"وكانت سياسة دنلوب التعليمية تهدف إلى تخريج جيل من أنصاف المتعلمين ممن لا يقدرون على القيام بأي عمل فيه تجديد أو ابتكار، ولا بأي نقد منهجي للوضع الراهن ماداموا لا يملكون نظرة تفسيرية نقدية عامة للوجود، ويرون في الاختلاف والتباين الفكري لونًا من ألوان الزندقة، ومن الصراع الفكري جريمة لا تغتفر، ومن دعوة التجديد والتطور بدعة خطرة يجب القضاء عليها بأي ثمن" (٦).

وفى عصر العز العلمي للمسلمين كانت المناقشات والمحاورات آلية مقبولة تمامًا لاستخلاص الحقائق دونما حظر أو تقييد، فكانت تُعقد المناظرات في المساجد وقصور الخلفاء والوزراء والأثرياء، ويحضرها فقهاء المسلمين وغيرهم من أهل الملل والنحل الأخرى حتى الصابئة منهم، ويتناقشون ويقلّبون الأمور على أوجهها دون تقييد أو تضييق، وكان الناس يختلفون إلى المساجد ليشهدوا مناظرات الفقهاء وكيف يكون دحض الحجة بالحجة وكيف يُتقبل الرأي الآخر إن كان فيه الصواب، هكذا دون

حساسيات، لذا كان ذلك هو المناخ الذي يذكي حركة العلم ويشحذ همم العلماء.

وما وهب الله الإنسان العقل إلا ليستعمله، فهل يتوجب علينا محاذرة ذلك خشية الوقوع في الخطأ؟ وإذا تجنب الناس إمضاء آرائهم خشية أن تكون مغايرة للصواب، لآلت أمورهم إلى البوار والكساد. وإذا كان من الخطر تحريم الدفاع عن رأي ما لأننا توارثنا الحكم عليه بالفساد والخطأ، فالأخطر من ذلك هو تنزيه رأي ما عن الخطأ بسبب ذيوع الاعتقاد بصوابه.

يقول جون ستيورات مل: "لو اجتمع الناس على رأي واحد وخالفه فرد فذ، لما كان لهم من الحق في إخراسه أكثر مما له من الحق في إخراسهم لو استطاع إلى ذلك سبيلا، إذ لا يقدح في أهمية الرأي قلة المنتصرين له...، فكأنهم يدعون أن يقينهم هو اليقين المطلق، ولا نزاع في أن كل إخراس للمناقشة معناه ادعاء العصمة، وذلك أعظم دليل على خطأ القائلين بتقييد حرية الفكر والمناقشة [٧]". وكان ينظر إلى أي جديد على أنه بدعة وابتداع يتعين معه استصدار فتوى من رجال الدين بشأنها، حدث هذا عندما عرف العثمانيون شرب

القهوة في أوائل القرن السادس عشر، وحرمها السلاطين بين "١٥١١ - ١٥٤٦"، ولكن سرعان ما انتشرت في حلقات الصوفية. كذلك جرى الأمر بالنسبة للدخان "التدخين"، ولكنه انتشر بعد ذلك في النارجيلة والغليون.

ولقد قامت الدنيا ولم تقعد عندما أفتى الشيخ محمد عبده بجواز لبس القبعة "البرنيطة الإفرنجية" وعدم تكفير من يرتديها "إذا لم يقصد الخروج من الإسلام أو الدخول في دين غيره، فإن هذا لا يعد كفرًا، وإذا كان لبس البرنيطة لحاجة حجب الشمس أو دفع مضرة أو مكروه أو تيسير مصلحة لم يكن كذلك [٨]". كما حاول الشيخ محمد عبده إقناع المسئولين عن الأزهر بتدريس مقدمة ابن خلدون لطلبة الأزهر لما فيها - على حد قوله - من آراء اجتماعية سديدة وما تكشف عنه من الأسباب المؤدية إلى وقاية الأمم من أسباب البوار. إلا أن مشايخ الأزهر رفضوا ذلك رفضًا قاطعًا وكان سبب الرفض أن (العادة لم تجر بذلك)!

"قال فضيلة الشيخ الأسبق للأزهر في التليفزيون المصري على مرأى من الجميع: أخطأ اليونان قديمًا حين استمسكوا بالعقل واعتزوا بمنطقه، وأخطأنا نحن حين أخذنا عنهم هذه

النقيصة..، وقال فضيلته ردًّا على سؤال حـول رأيـه فـي الأستاذ الإمام محمد عبده، إنه أخطأ حين فسر القرآن الكريم بالعقل، وكان ينبغي أن يفسر القرآن بالقرآن [٩]"

ويوافق هذا الرأي رأي البابا جريجوري السادس عشـر والبابا بيوس التاسع اللذين قالا بمقاومة حرية النظر العقلـي والتصدي للنزوع إلى تحكيم العقل. ومـاذا عـن الحقـائق الكونية التي يكشف عنها العلم يومًا بعد آخـر ونجـد أنهـا مسطورة في القرآن الكريم وكلها حقـائق وبـراهين عقليـة تعزز إيمان المسلم وتؤكده، أنقول بنبذ العقـل عنـد تفسـير القرآن؟ وهذه المعجزات العلمية المذكورة في كتاب الله هـي خير ما يدعو الإنسان الغربي المعاصر إلى إسلامنا الحقيقي بعدما نفره منه واقع وسلوكيات المسلمين.

وإذا كان تحقير العقل يقول به كبار رجال الدين – كمـا رأينا – لذا فليس من الغريب أن يصبح تحقير العقل ونبـذه دينًا واعتقادًا، ويصبح القول بغيره مروقًا من الدين وخروجًا من الملة.

ومضى العالم يستثمر العقل الذي مكنهم من الإطباق على رقابنا التي تحمل رءوسا بلا عقول فملكونا وأذلونا.

"وفى الواقع المعاصر المجاور لنا صدرت فتاوى ملزمة بحرمة القول بكروية الأرض وحرمة الدعوة إلى حقوق الإنسان وحرمة قيادة النساء للسيارات، ونحن نعتبر هذه الفتاوى اجتهادات بشرية خاطئة... كما أصدر شيخ الإسلام العثماني فتوى بعزل السلطان سليم الثالث لأخذه بالأساليب الغربية في تنظيم الجيش، وكان نص الفتوى كما يلي: "كل سلطان سيدخل أنظمة الفرنجة وعوائدهم، ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحًا للمُلك. ومن قبل أفتى العلماء للسلطان محمد الفاتح بمشروعية إصداره قانونًا بقتل الأمراء حتى لا يتنافسوا على العرش فتعم الفتنة [١٠]"، تلك الفتنة "المظلومة". .. التي يلوِّح بها "الفقهاء" بغية اتقاء مغبتها، مع أن صلاح الأحوال يكون في خوض فتنة واحدة وتحمُّل نتائجها التي تحول دون حدوث ألف فتنة بعدها.

يقول الحسن بن الهيثم: إن حسن الظن بالعلماء السابقين مغروس في طبائع البشر، وإنه كثيرًا ما يقود الباحث إلى الضلال، ويعوق قدرته على كشف مغالطاته، وانطلاقه إلى معرفة الجديد من الحقائق، وما عصم الله العلماء من الزلل، ولا حمى علمهم من التقصير والخلل ولو كان ذلك كذلك، لما

اختلف العلماء في شيء من العلوم، ولا تفرقت آراؤهم في شيء من حقائق الأمور".

إغلاق باب الاجتهاد

١ – حسن عبد العال/ التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري.
٢ – أسماء حسن فهمي/ مبادئ التربية الإسلامية
٣ – ابن زنبل الرمال/ آخرة المماليك
٤ – جمال الدين الأفغاني/ الخاطرات
٥ – د. أحمد صبحي منصور/ العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف.
٦ – د. أنور عبد الملك/ الشارع المصري والفكر
٧ – جون ستيورات مل/ الحرية
٨ – د. توفيق الطويل/ في تراثنا العربي الإسلامي "عالم المعرفة"
٩ – المرجع السابق
١٠ – د. محمد نور فرحات/ البحث عن العقل.

الفصل الأول

الإمـــام المنتظـــر

- صلاح الأحوال رهن بازدحام المساجد في صلاة الفجر.
- يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف.
- انعقاد آمال المسلمين على عودة الإمام المنتظر.

الإمام المنتظر

كلمة لابد منها حول التدين المغلوط:

لقد تم فك الارتباط بين الإسلام والسلوك، وتم اختصار الدين إلى العبادات فقط، وتم اختصار العبادات إلى أداء الشعائر والانشغال بها دون غيرها انشغالا أجوف غير فاعل لا يحض على فضيلة حقيقية، أو يؤدي إلى انضباط السلوك. فترى المسلم يحرص على أداء الصلاة في موعدها، وهذا حسن، غير أنه يغش في تجارته ويطفف في الميزان. تراه يصوم ويستنكر إفطار المفطرين، وهذا حسن، ولكنه يرتشي، بل يهرب بأموال البنوك بالمليارات إلى خارج البلاد. تراه يحج البيت كل سنة، ولكنه يستولي على أراضي الدولة بوضع اليد... سلوكيات تبعد كثيرا عن جوهر الفضائل التي يحضنا عليها إسلامنا. ولما كانت غاية الأديان هي ضبط سلوكيات الناس، لذا فإن وقوع هذه السلوكيات خارج دائرة الأخلاق ومخالفتها للمعايير والضوابط يبطل تأثير الدين ويعطل مهمته. ونظرة واحدة إلى سلوكيات أمة الإسلام المنكوبة تكشف بيسر بُعد الشقة بين الإسلام الحنيف وواقعنا

المزري. وانحصرت اهتماماتنا الدينية والحياتية في بعض قضايا لا تمثل جوهر الدين. ووقع خارج دائرة هذه الاهتمامات العدل والمساواة، والشورى، وسيادة القانون، والقضاء على الفقر والجهل والمرض، والتعليم والبحث العلمي. وانشغل وعاظنا بالنقاب واللحى في زمن تتكالب علينا فيه الأمم كما تتكالب الأكلة على قصعتها، كما تنبأ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. وفى زمن الانسحاق والانكفاء والهزيمة، عمد المستضعفون إلى التفسير الغيبي للأحداث والقول بأن النصر لا يأتي إلا بالدعاء وحسن التدين. وذلك محض تبسيط مخل وضرب من الدروشة الجديدة، فأعداؤنا ليسوا بمسلمين، ومع ذلك هزمونا ويواصلون هزيمتنا. ولو كان الدعاء وحده هو طريق النصر وأداته، أفعدم المسلمون رجلا صالحا واحدا يدعو لهم بالنصر إبان هزائمهم التي دامت قرون؟ ولو صح ذلك ما كان الله تعالى ليقول: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾، ولو كان الأمر بحسن التعبد وحده دون الأخذ بالأسباب، لكان أولى بالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم أن يكتفي بالدعاء وهو المجاب الدعوة. ولكنه لم يفعل، بل أخذ بأسباب القوة ولجأ

في الحرب إلى الحيلة والخديعة واستخدم السلاح، وأحكم الخطط، وبث العيون، ثم بعد ذلك دعا الله بعد أن كان قد استفرغ جهده واصطنع الوسائل. وما يقوله وعاظ السلاطين هراء وقلب للحقائق وصرف للعقول عن اكتشاف أن تردي الأحوال ليس قضاءً من الله وقدرا مقدورًا، وإنما سببه هو التقاعس عن الأخذ بأسباب القوة، وليس بسبب تقصيرنا في أداء العبادات، وبذا تنسحب أسباب الفشل والهزائم إلى دائرة تقصير الناس في التعبد، أي ليس بسبب الحاكم الذي قصر في الإعداد للحرب وتجييش الجيوش، ولا بسبب غباوة وقلة دراية قادة الجيوش، أو لنقص موارد الأمة التي نهبها أولو الأمر والمماليك، إنما المسألة تم اختصارها في قلة عدد من يصلون الفجر. وكان أحدهم قد قال إنه لا صلاح إلا إذا امتلأت مساجدنا بالمصلين صلاة الفجر كما تمتلئ بهم في صلاة الجمعة. وهذه نظرة قاصرة لا يقول بها سوى الدراويش الذين يمضون يومهم في عد حبات مسابحهم ويمضون ليلتهم يزعقون بتراتيلهم في حلقات الذكر، وقد غفلوا أن الأرض تثمر الزرع لمن يحرثها ويسقيها لا من يصلي عليها فقط. فللقوة آلياتها من أخذ بها أصبح قويا

عزيزا، ومن أغفلها وتاه عنها بات ضعيفًا مهينًا ولا شأن للدين بهذا. فالهند دولة قوية مرهوبة الجانب يعمل أعداؤها لها ألف حساب مع أن شعبها من الهندوس والوثنيين، والصين واليابان دولتان متقدمتان وهما على غير الإسلام. لقد أمرنا ديننا الحنيف أن نأخذ بأسباب القوة، ولكننا لم نسمع أو نفعل. هم يصنعون "مدنية"، وليست حضارة. ولكننا بأسباب العلم والقوة وتحت مظلة إسلامنا الحنيف، يمكن أن نصنع "الحضارة"، فالحضارة تقوم أيضا على البعد القيمي والأخلاقي، وهم بلا دين يصنعون "مدنية" وأسلحة وقوة، ولكن بلا قيم أخلاقية تردعهم، مثلا، عن التخلص من فائض القمح في البحر بينما يموت الملايين جوعا في إفريقيا وغيرها. وليست لديهم الأخلاق التي تمنعهم من سحق الأطفال والنساء والشيوخ في بلاد خلق الله التي يطمعون في بترولها وثرواتها، ولم تردعهم "أخلاقهم" عن إبادة الهنود الحمر وشعب أستراليا الأصليين، أو تحُول دون خطف واسترقاق ملايين الأفارقة، أو نهب ماس أفريقيا وبهارات الهند..

إن لدينا نحن المسلمين نظامًا متشابكًا من الأفكار المسيطرة والمعتقدات الحاكمة التي نظن أنها مقدسة وغير قابلة للتمحيص، ونحن أعجز من أن نزيلها من عقولنا، إذ تركناها تؤثر في حياتنا آمادا طويلة حتى ترسخت بفعل الوقت والممارسة، إنها الأفكار السارية الحاكمة والمعتقدات المسيطرة والظواهر الفاعلة التي تشكل سلوكياتنا على نحو مخالف للدين ومغاير للسنة، ومع ذلك نراها أفكارًا مقبولة ولا ضير من الإيمان بها. ومن هذه الأفكار والظواهر: القضاء والقدر، والإمام المنتظر، والتصوف. وهى أفكار لم تحظ بالدراسة الواجبة أو الاهتمام الكافي. وسوف نلقي عليها، ما وسعنا في ذلك الجهد، بعض الضوء في الباب الحالي، عسى أن يتوفر باحث آخر على دراسة هذه الأفكار بإسهاب واستفاضة. وعلى الله قصد السبيل..

الإمام المنتظر والانهزامية وسيادة التفكير بالتمني

نحن نؤمن بالحلول السماوية السحرية السريعة التي تهبط علينا فجأة لتحيل ضعفنا قوة، وتمنحنا العزة بعد المذلة. ما زلنا نحلم بأنه لن ينقذنا من هذا الضعف والهوان

إلا ظهور الخليفة أو المهدي المنتظر. ونسينا ما كان من خلفائنا السابقين. ونرى أن الحل في تنصيب خليفة. وذلك ضرب من سيادة التفكير بالتمني، وهو تفكير يعفينا من مشقة العمل وجهد النظر والتأمل في طبيعة مشكلاتنا والتفكر في حلول واقعية تخرجنا من هذا النفق المظلم الذي قبعنا فيه سنوات وسنوات ولا يلوح لنا الخروج منه في المستقبل القريب. وهذا التفكير يريحنا من مشقة العمل بجد لإصلاح أحوال العباد والبلاد، ومن العمل على إحداث نهضة ثقافية وعقلية وصناعية وزراعية وتكنولوجية وعلمية، والعمل على إرساء مبادئ الحكم الشوري والعدل والمساواة وسيادة القانون والقضاء على الفساد بأشكاله كافة، وإحداث ثورة في نظام التعليم والبحث العلمي والقضاء على الأمية الهجائية والثقافية، وتحقيق الوحدة بين الدويلات العربية بدلا من هذا التشرذم، والشروع في إلغاء آثار معاهدة سايكس/بيكو التي فرقت العالم العربي ومزقته إلى كيانات فسيفسائية. فمصائر الأمم وأقدارها لا تتحدد بلمسة من عصا ساحر ماهر، بل يصنع أقدار الأمم حاكم شرعي مقتدر، والشرعية هنا ليست شرعية قريش أو شرعية الجيش، بل الشرعية الحقيقية

الوحيدة هي شرعية الاختيار الحر من الشعب الحر في نظام شورى تحكمه المؤسسات لا النظم الديكتاتورية أو الأتوقراطية أو الثيوقراطية أو حكومات العسكر.

وحماسة المسلم لدينه قد توهمه بعدم الخضوع للسنن التي يخضع لها سائر الخلق من حوله، فيظن، في وقت شدته، أن الله سيستثنيه فلا يخضع للقوانين والسنن التي يخضع لها الناس، ويأمل أن تبادر قوى خفية لمساعدته في الوقت المناسب، وأن عناية خاصة مبهمة قد تمد له يد العون لتقيله من عثرته، وعليه فقط أن ينتظر المعجزة. ويطول بالمسلمين الانتظار، عليهم انتظار اندحار الأعداء بلا قتال، إذ سيُهزمون بالدعاء أو بالوباء أو يتحولون فجأة مسلمين، أو انتظار موت المستبد ليحصلوا على حريتهم، فلا جدوى من مناهضة الظالم وانتزاع حريتهم وكرامتهم، بل عليهم انتظار وفاته، ونسوا أن ابن المستبد سيرثهم كما تورث الأنعام، ويطول بهم الانتظار. لقد غفلوا عن أن انتظار الحلول السحرية التي تأتي بغتة دون الأخذ بالأسباب واستفراغ الجهد، إنما هي محض أضاليل تشل عقولهم كما تشل الأحجار الثقيلة عنق من يحملها على رأسه. وهذا

الانتظار، على طريقة انتظار الإمام المنتظر، سمة من سمات العقل المهزوم، هكذا يفكر كل المهزومين وكل من ضاقت بهم السبل، هكذا ظن الألمان بعد هزيمتهم في الحرب العالمية الثانية، وكانوا يتوهمون أن هتلر سيخرج عليهم معلنا استخدام سلاح جبار يحول الهزيمة نصرا. وهكذا فكرنا بُعَيد هزيمة ٦٧، إذ قلنا: لم يحن بعد استخدام صواريخنا الفتاكة من طراز الظافر والقاهر. وعودة الإمام المنتظر اعتقاد لدى فئة من الشيعة المسلمين إذ يرون أن الإمام سيعود ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورًا. قالوا بهذا منذ أكثر من ١٣٠٠ سنة، وما زالوا ينتظرون. إنها العقلية التي تنتظر الفرج السهل وتنأى بنفسها عن الصعب، وتترك المهام الجسام التي يتعين عليها الاضطلاع بها، لشخص آخر تتخيله وتتمناه وتنتظره. وبذا نترك الأهداف التي يمكن بلوغها بإصابات مباشرة، ولكن ببعض الجهد، ونكتفي بالجري وراء سراب وأوهام. والأمر واضح واضح، يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾. هذا هو السبيل، والسبيل الوحيد. فعلينا أن نتنبه إلى كشف السنن التي خلقها الله لتسيير الحوادث.

ويحلم المقهورون بتغيير واقعهم، ولكن لم يخطر ببالهم أن التغيير لا يبدأ إلا من داخلهم، إذ يتعين عليهم رفض القهر، بل لا مندوحة من الشروع فورا في إعداد العدة لقهر قوى قهرهم. ولكن ذلك يبقى في دائرة الأماني فقط إن اطمأن المقهورون إلى ما بأنفسهم من رضا بالحال والأمل في معجزة من السماء تأتيهم على أجنحة الطير لتنقذهم من واقعهم البائس، أو ينتظرون الإمام المنتظر ليعتقهم من عبوديتهم. ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ صدق الله العظيم. "ويقع المسلم في متاهة حين يريد التغيير، ولا يرى أن الموجود هو الذي يوصل إلى المقصود، وأما الوسيلة التي يتوق إليها فإنه لا يتمكن منها، فالموجود غير مفيد في نظره، والمفيد غير متوافر لديه. إذن لا فائدة من العمل فيما هو غير متيسر. ولذا فهو في إجازة مفتوحة حتى تتدخل القوى الخارقة الغامضة الأسباب بينما العقل المتبصر لم يعد يرى غموضا في الأسباب حتى في مستوى إنزال الملائكة للتأييد والنصر، إنه يخضع لقانون وسبب واضح هو اتخاذ الرب إلها والاستقامة منهجا،﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ

تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُـوا وَأَبْشِـرُوا بِالْجَنَّـةِ ﴾ فصـلت ٣١، إن النظرات الخاطئة التي تعرقل الحركة ليست ضخمة، ولكنها دقيقة لا يقف الفكر عندها، بل يتجاوزهـا دون أن يلمحهـا، ولكن هذه الغفلة اليسيرة توقف سـير التـاريخ" [١]. وعبثـا ينتظرون الإمام المنتظر الذي يزرع لهم الأرض ويحرثهـا، ويدير لهم ماكينات مصانعهم، ويسحق لهم المحتل الغاصب، ولا بأس من استعجال العون الغيبي ببعض الـدعوات مـن نوع: يا عزيز يا عزيز مصيبة تأخذ الإنجليز، أو يـا خفـي الألطاف نجنا مما نخاف. وهي دعوات كان يدعو بها العامة على عسكر الإنجليز والفرنساوية عندما احتلوا مصر. ذلـك هو ما يرون فيه "الجهاد الأكبر". أمة أغلقت عقلها فخسـرت دينها قبل دنياها. وكان المستضعفون من المسلمين – طـوال تاريخهم – حريصين على نيل حريتهم والانعتـاق مـن رق الاستبداد، ولكن ذلك الحرص لا يزيد علي مجـرد أحـلام تراود النائم في فراش وثير دافئ، ولا يريد حتى أن يغـامر بمغادرة فراشه كي لا يفوته دفء الأغطية. ولم تؤت مساعي المقهورين للتصدي للمستبد ثمارها إذ بقيت مجـرد أنشـطة رخوة وجهود مبعثرة لا تجمعها ضوابط مقدرة، وكان سعيهم

لنيل الحرية سعيًّا طفوليًّا لا يرقى إلى مستوى فاعل يحقق الأماني والأحلام.

بعد وفاة الخليفة الأموي يزيد بن الوليد واستعادة الأمويين السلطة، حاول المعتزلة إقناع جعفر الصادق زعيم الشيعة الإمامية بالبيعة لواحد منهم، ولكنه رفض المبايعة إذ كان مسالما وليس ممن يقول بقتال الطغاة، ويرى عبثية مناهضة المستبدين بالسيف والثورة، وكان من أنصار "انتظار الفرج"، والصبر على بني أمية الظلمة، وكان يرى بأن "لا يخرج واحد من أهل البيت حتى يأذن الله بزوال ملك بنى أمية" (٢)، "وظل جعفر الصادق على رأيه في رفض الخروج والثورة متمسكا بالإمامة الروحية! "وانتظار" أن يزيل الله ملك بني أمية ويعطى الخلافة لآل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم" (٣). وكان جعفر الصادق يرى مواصلة المقاومة السلبية حتى يظهر المهدي الذي سيرسله الله ليحكم بالحق. ولم يظهر هذا المهدي بعد ١٣٠٠ سنة من انتظار الشيعة. وكفى بطلب السلامة من داء، ومدار الأمر في شجاعة القلب، فما ينجو من الموت من خافه، وما يُمنح الحياة من أحبها. واسمع معي ما يقوله أديب إسحاق ذلك السوري الحر

الذي قال قبل قرن وربع القــرن فــي عصــري الخــديوي إسماعيل وتوفيق، وهو يتخيل خروج الناس بالســيف علــى المستبد: "تصورتهم بأسمال تشف عن الجلود، يتدافعون فــي المسالك صائحين، يتلقون سيوف الجنــد بمــا قطعــوا مــن الأشجار، ويقابلون رصاص البنادق بما اقتلعوه من الأحجار، زاحفين مكشوفة رءوسهم لحملة السيوف، مفتوحة صدورهم للرماة، يبتسمون للموت سآمة من الحياة، فلا ينثنــون عــن القصد حتى يقف آخرهم على رأس أخيه من ربــوة أشــلاء ذويه، فيرفع بيده اللواء صائحا: ليفن الظلم! أو ينــزع مــن صدره النصل مناديا: لتحي الحرية! فقلت ما لهؤلاء النــاس يهرقون الدماء، ويغتالون الرؤساء، ويفسدون فــي الأرض، قالوا لحجب الدماء، ودفع الغلبة، وجلب الصلاح، وقلت كيف تسمون ما يفعلون، قالوا الثورة وهى الدواء، بالتي كانت هي الداء [٤]". لا فض فوك يا بن إسحاق، وجزاك الله خيرا عــن أمة المسلمين الغافلين، يقول قولــه هــذا، وهــو دون ســن العشرين.

وقد يكون المرء صالحًا حسن النية، ولكنــه يــرى فــي التصدي للظلمة والطغاة خروجًا على قدر الله، ويرى بحسن

نية، أن الأفضل انتظار فرج الله، أو وصول الإمام المنتظر، أو موت الأعداء، أو إصلاح أحوالهم بين يوم وليلة بلمسة من يد أحد ملوك الرحمة. وهكذا تراوح تاريخنا، كله تقريبا، بين حسن نية الأتقياء، وسوء نية المستبدين، واستسلام المستضعفين. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

لما أنذر هولاكو الخليفة العباسي المستعصم بالله بغزو البلاد وإهلاك الحرث والنسل، ماذا كان من أمر الخليفة الهمام، قام من فوره بتسريح جيشه بناء على نصيحة وزيره الخائن مؤيد الدين (!!!) ابن العلقمي، والذي كان يتخابر مع التتار ويزين لهم غزو البلاد وذلك في غفلة من الخليفة إذ كان مشغولا مع جواريه، "وقيل إنه كان ينتظر "معونة إلهية"، كما ذكروا أنه كان ينتظر مساعدة أمراء المسلمين... وعلى كل حال فإنه لزم خطة الجمود، ولم يقم بعمل يستحق الذكر، ولم تنزل عليه معونات إلهية، ولم يخف الأمراء المسلمون لنجدته" (٥)

"ولا يمكن للمسلمين أن يتحركوا بجدية لتغيير واقعهم، ما لم يقتنعوا أن مشكلتهم تخضع لقوانين وسنن. أما إذا بقي لديهم الشعور بأن المشكلة لا تحل إلا بالمهدي، أو بأن الزمن

شارف على الانتهاء، فإن المشكلة تبقى دون حل، بل تــزداد تعقيدا،... وما لم نتمكن من معرفة تغيير ما بالنفس، ومعرفة ما ينبغي أن نغير كمًّا وكيفًا، فسنظل ننتظر المهدي فعلا وإن نفينا عن أنفسنا ذلك نظريًّا" [٦]. والله تعالى يقول : ﴿ **فَهَــلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً * أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ صــدق الله العظــيم** ﴾. "فــاطر ٤٢/٤٤"

ودرج الناس على انتظار الحلول السماوية التــي تهــبط عليهم بدون جهد أو مشقة، وإنما يستمطرونها بالدعاء فقــط كما يطلبون الغيث بصلوات الاستسقاء، وكان هديهم في ذلك ظنهم أن الصبر مطية لا تكبو، وسيف لا ينبــو. وفــاتهم أن الغاية تُرجى بمشقة السعي إليها، لا مجرد انتظار الفرج الذي لا يواكبه عمل وجهد، ذلك الفرج الذي لا يمنحه الله تعــالى للمتهاونين المتخاذلين، الفرج الذي لا يوهب للجهلة وأشــباه الرجال. وتحملوا عذابات القهر، واكتفوا بانتظار مجيء حاكم يخشى الله فيهم، وطال بهم الانتظار، وتجرعوا صنوفا مــن الهوان، تتسلمهم يد طاغية لتسلمهم إلى جبــار آخــر، وهــم

ينتظرون صلاح الحال باستجابة السماوات لدعواتهم بموت الطغاة أو بجعل الأعداء "غنيمة لنا"، مثلما يردد وعاظ المساجد عندما يدعون على الصهاينة، ولا أدري فرقا بين هذه المواقف التخاذلية وموقف اليهود عندما قالوا لنبيهم ﴿**فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾.

انعقدت آمال فرق عديدة من المسلمين على عودة الإمام المنتظر الذي سيأخذ بأيديهم إلى بر القوة والحق والعدل، فزعمت فرقة "الرجعية" من فرق الرافضة، أن عليًّا كرم الله وجهه – وأصحابه يرجعون إلى الدنيا وينتقمون من أعدائهم. وتشكلت العقلية التي تنتظر ذلك الشيء السماوي المبهم الذي يحل لها مشكلاتها كلها، ويؤدي عنها أدوارها وواجباتها، والمطلوب فقط الانتظار والاستمساك بهذا المعتقد – معتقد عودة المنتظر – دون تمحيصه أو انتقاده فهذا كفر وهرطقة. وأصبحت فكرة ترقب الإمام المنتظر فكرة أساسية في ضمائر بعض فرق المسلمين، ويكون هذا المنتظر هو المُطَالَب بمناهضة الأعداء ومحاربة الظلمة، وذلك يعفيهم من الواجبات والمسئوليات إذ أحالوها جميعًا إلى الإمام المنتظر. وتشبَّه أصحاب فرقة المتربصة، من الرافضة أيضا، بزي

النساك، ونصبوا في كل عصر رجلا ينسبون الأمر إليه يزعمون أنه مهدي هذه الأمة، فإذا مات نصبوا رجلا آخر.

"إن إدخال فكرة المهدي المنتظر ضمن العقيدة مخاطرة لا تستند إلى دليل، لأن العقيدة لا تثبت إلا بأدلة قطعية لا شبهة فيها، أما أخبار المهدي في أسمى حالاتها لا تفيد إلا الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئا. ذلك لأنها أدلة ظنية حافلة بالشبه والاحتمالات فهي مهتزة لا تقر عقيدة ولا تورث يقينا،... وأخذ المسلمون يبحثون عن شخصية البطل ويحلمون بالمنقذ ذي القوة التي لا تقهر" (٧). وفكرة انتظار الأبطال المنقذين، والحلم بالمنقذ البطل الذي لا يقهر ليست بدعا في التفكير الإسلامي وحده، فاليهود حين عانوا العنت حلموا بمن يظهر في آخر الزمان ويجمع شملهم وينافح عنهم – وفى العصر اليوناني "استولى الاتجاه الصوفي على وجدان الطبقات المستنيرة وغير المستنيرة على السواء، ولم تجد المذاهب والطوائف الدينية وقتا أنسب للازدهار من مثل هذا العصر، فظهرت الفيثاغورثية الجديدة، والأورفية التي كانت تدعو إلى تطهير النفس عن طريق الموسيقى والإنشاد الديني، وأصحاب نظرية قدوم المخلص

المنتظر. وهناك من يقارن بين هذا التيار الصوفي الانتظاري الذي ساد في روما وبين الموجة الدينية التي أحـــدثها أنبيـــاء بنى إسرائيل ابتداء من حزقيال إلى يوحنا المعمدان، حيـــث نودي في الناس أن المسيح المنتظر سوف يجـــيء ويضـــع نهاية للظلم في العالم" [٨]. وكذلك حلم المسيحيون في عصور اضطهادهم بوهم عودة المسيح ليقيم دين النصرانية وينقـــذهم من الاضطهاد. إن فكرة انتظار البطل هي ابنة الظلم والقهر.

الإمام المنتظر

١- جودت سعيد – حتى يغيروا ما بأنفسهم
٢- الشهرستاني – الملل والنحل،، الجزء الثاني
٣- محمد عمارة – المعتزلة والثورة
٤- أديب إسحاق – الدرر
٥- د. مصطفى طه بدر – محنة الإسلام الكبرى
٦- جودت سعيد – حتى يغيروا ما بأنفسهم
٧- عبد المعطي عبد المقصود محمد – المهدي المنتظر في الميزان
٨- د. سيد الناصري – تاريخ الإمبراطورية الرومانية

الفصل الثانى

القضاء والقدر

- الجبرية: إنما نحن كالبهائم تقاد بالحبل.
- المتصوفة :إن سألت من أين أطعم عيالى، فقد أشركت.
- أبو حامد الغزالى: لا يجوز الاعتكاف في مغارة إلا بإمكان التقوت بالحشيش.

القضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر ليس معناه نفي المسئولية عن الإنسان، فالقرآن الكريم يزخر بالآيات التي تحمل الإنسان عاقبة عمله. وكل ما يحدث في هذا الكون لا يجري على غير إرادة الله تعالى، وإنما وفقًا للنواميس التي خلقها الله وبحسب إرادته تعالى. ذلك ببساطة شديدة هو مفهوم القضاء والقدر في ضمير المسلم. أما المفهوم بمعنى "الجبر" فقد أخذ به رجال الدين اليهود في الماضي. ذلك المفهوم الذي يعفي الإنسان من المسئولية ويرجع كل شيء إلى إرادة الله وحدها وإغفال مسئولية الإنسان. وهو مفهوم يفضي إلى التواكل والسلبية، إذ لا يرى المرء معه جدوى من الأخذ بالأسباب ومنافحة الظلم أو دفع القهر أو مقاتلة العدو. بل عليه فقط الانتظار والصبر حتى يتولى الله تعالى عن الإنسان هذه الواجبات.

ألم تر أن اليهود قالوا لنبيهم: ﴿ **يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** ﴾. وظل اليهود قرونا عديدة يعتقدون أن الرب "سيحرق كل أعداء اليهود، وسيغرقهم في بحور الدم، وأنه

سيفعل ذلك بمفرده. أما هم فيتفرغون لجمع المال. وأما إعادة الهيكل فتلك مهمة الرب. وظلت تلك هي رؤية اليهودي لفترات طويلة، غير أن ظروفًا تاريخية استجدت جعلت مجموعة من اليهود تتبنى فكرة الصهيونية العملية، أي عدم الاكتفاء بالاعتماد السلبي على الرب وإنما معاونته – إن صح التعبير – في تحقيق هدفه الذي هو هدف إسرائيل في اعتقادهم. وهكذا بدأ اليهود في تخصيص جزء من أموالهم لشراء الأرض وتكوين الكتائب المسلحة وتوسيع العلاقات السياسية والاقتصادية بالقوى العظمى... إلخ وكان الانتقال إلى مرحلة الصهيونية العملية ما هو في حقيقة الأمر إلا انتقالا من فكرة "الجبر" السلبية اليهودية إلى فكرة القضاء والقدر بأبعادها الخصبة في الفكر الإسلامي، لذا فيمكننا القول بوضوح كامل إن التحول عن فكرة الجبرية السلبية والاعتماد السلبي على الرب – سبحانه – عند اليهود كان تأثيرا إسلاميًّا، وتمخضت عن ذلك أيضا أخطر فكرة هددت السلام في المنطقة العربية، وهي فكرة الصهيونية العملية، ولكن الشيء الغريب أنه في الوقت الذي انتقلت فيه فكرة القضاء والقدر بمعناها الإسلامي الخصب إلى اليهود، بما في الفكرة

من مزايا، انتقلت إلى العالم الإسلامي فكرة الجبر بمعناها اليهودي السلبي إلى حد ما، وحاول البعض تفريغ فكرة القضاء والقدر الإسلامية الخصبة من كل المزايا" [١].

واسمع إلى دعوات وعاظنا في المساجد، تجد أنها جميعًا أو معظمها تتراوح بين: اللهم اهزم أعداءنا، لا أن نقوم نحن بهزيمتهم وحربهم، واجعلهم غنيمة لنا، ويتِّم أبناءهم ورمِّل نساءهم. .. فكلها مهام يدعون الله سبحانه أن يقوم بها نيابة عنهم. أو أن يصيح صائحهم بأن: يا يهود جيش محمد سوف يعود، أماني بأن يعود جيش محمد صلى الله عليه وسلم، ليتولى عنهم الجهاد. أو يتحدثون عن قرب ظهور مثيل صلاح الدين ليتولى عنهم مهمة هزيمة العدو. يقول رفاعة رافع الطهطاوي "كان المصريون والمسلمون يوكلون أمر إحقاق الحق وقمع الظلم إما إلى القضاء والقدر أو إلى ذوق الحاكم وحيائه (!!) أو إلى نزوة من كبير تجعله يرى نور العدل للحظات" [٢].

ويرجع أنصار القدرية والجبرية أن الأقدار تجري كما شاء مجريها ولا أحد في هذه الدنيا يملك عنان اختياره، الأمر الذي ينفي المسئولية عن الظلمة والطغاة، ويجرد

المستضعفين من حقهم في مدافعة القهر، فذلك قدرهم الـــذي أراده لهم الله تعالى، وكان المستبدون يلاحقون كل من يقول بغير هذه الأفكار. في حين يقول ابن تيمية مصححا اعوجاج هذا الرأي: (وكل من احتج بالقدر فإنه متناقض، فلا يمكن أن يقر كل آدمي على ما يفعل به. فلابد إذا ظلمه ظالم أن يدفع هذا القدر وأن يعاقب الظالم بما يكف عدوانه وعدوان أمثاله، فيقال له: إن كان القدر حجة فدع كل أحد يفعل بك ما يشاء، وإن لم يكن حجة بطل قولك إن القدر حجة" (٣). كذلك يـــرى أفلاطون أن الإنسان يمسك بأعنـــة مصـــيره، ورأى رأيـــه أرسطو الذي اشترط أن يتمتع الإنســـان بحـــظ وافـــر مـــن المعرفة كي تتحقق له السيطرة الكاملة على مصيره.

وتعليل الأحداث بأنها قدر محتوم، وتفسير التـــاريخ بأنـــه قضاء لا راد له، دون التنبه إلى سننه وقوانينه، إنما يـــؤدي إلى الانصراف عن بحث بواعث الأحداث وكشف عللها، كما يسبب الإعراض عن الاستفادة من عبر التاريخ. لذا ينزلـــق الخلف إلى الوقوع في نفس الأخطاء التي سبق ووقـــع فيهـــا السلف مع أملهم الكاذب، في أن تؤدي بهم المقدمات إلى غير النتائج التي تؤدي إليها حتما بحكم السنن، جهلا منهم بالقانون

الذي يحكم الأحداث، فينصرفون مثلا عن الأخذ بأسباب القوة، ولا يتوقعون أن يهزمهم الأعداء ظنًّا منهم أن القدر يحابيهم فهم أحباب الله. ويسلمهم وهمهم إلى افتراض أن لهم خصوصية ليست لغيرهم كما يظن اليهود بأنهم لا يزالون شعب الله المختار. وكيف لا يهزمون أعداءهم؟ صحيح أنهم – أي المسلمين – لا يملكون مثل بنادق الأعداء ومدافعهم، ولكنهم يحسنون الوضوء ويجيدون الدعاء، كما أنهم يمضون الليالي الطوال يذكرون الله في حلقات الذكر، فكيف لا ينصرهم الله؟ ألم يعدهم الله بنصره؟ ومع ذلك يحصدهم الأعداء حصدًا، فلا يفسرون هزائمهم بعدم الأخذ بأسباب القوة بل يدفعهم غرورهم وجهلهم إلى التشكك في أنهم قد قصّروا في الدعاء، أو أن حلقات الذكر لم تكن كما ينبغي؛ إذ لم يزعقوا فيها ملء الحناجر، ولم يخلصوا في طلب المدد من كل "أولياء الله الصالحين" من المتصوفة والهبل والدراويش. لقد تعطلت العقول.

عندما هزم السلطان العثماني سليم المماليك في موقعة مرج دابق وتمكن من أسر الأمير المملوكي كرتباي، دار حوار بينهما وسأله فيه السلطان سليم عن سبب هزيمة

المماليك، فلم يفسر الأمير المملوكي الهزيمة بالخيانة والفرقة، وافتقاد الجيش إلى الأسلحة النارية، وغباوة السلطان، ولكنه قال: "والله ما أخذتم أرضنا بقوتكم، ولا بفروسيتكم، وإنما ذلك أمر قضاه الله تعالى وقدره في الأزل، وقد جعل لكل شيء بداية، ولكل بداية نهاية"(٤)، وذلك جريا على الاعتقاد المغلوط الراسخ في هذا الوقت بالقضاء والقدر أو تفسير كل الحوادث على أساس غيبي لا دخل للإنسان فيه.

ولقد شاعت بين الأمم كافة التفسيرات الغيبية للأحداث في لحظات هزائمها، وغفل الكثيرون عن تفسير الأحداث بعللها الحقيقية. فقد شاع مثلا إبان الصراعات بين الوثنية والمسيحية مقولة إن المسيحية وراء تدهور الأحوال الاقتصادية في الإمبراطورية الرومانية قبل سقوطها، وإن الآلهة الوثنية غضبت على روما وكانت وراء سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية، وتراوحت تفسيرات أسباب هذا السقوط بين غضب الآلهة على الرومان المنحرفين أصحاب الخطايا وسبب مفاسدهم الأخلاقية، كذلك فسر يوحنا أسقف نيقية هزيمة الروم أمام جيوش عمرو بن العاص بأنها

عقاب من الله لأباطرة بيزنطة لما اقترفوه في حق الأقباط من اضطهاد.

"واستولت النزعة السلبية على المجتمع الإسلامي بعد الفتن الكثيرة التي توالت على المسلمين بعد مقتل سيدنا علي كرم الله وجهه، ومصارع أهل البيت على أيدي الخلفاء الأمويين والعباسيين على السواء، فكان الاستسلام للأحداث والتسليم بالخذلان، هو العزاء للكثير من النفوس، حتى لقد شاع في الناس القول بأن هذا ما قضى الله وقدَّر، فكان هذا قولا يقال في كل حال، وعزاء يردد عند كل خذلان، وهذا حق، ولكن الاستنامة في ظل هذا القول، ورمي القدر بكل أخطائنا، هو الذي لا يرضاه عقل، ولا يقره دين (٥)."

ويرى "كالفن" أحد دعاة الإصلاح الديني، أن أكبر آثام البشر هو إعمالهم الإرادة، ويرى أن الإنسان محروم من الاختيار، وأفضل ما عليه عمله هو التسليم المطلق والطاعة العمياء، فالحوادث مسيّرة بالقضاء والقدر.

إن من يغفل عن كشف سنة الله المؤدية إلى تردي أحوال المسلمين، أو من يجهل أصلا أن سنن الله تعالى وراء الأحداث فاعلة ماضية، وأن الأمور لا تسير خبط عشواء،

على أولئك أن يعرفوا أنهم طالما جهلوا هذه السنن فلا سبيل إلى معرفة الحقائق أو تسخير هذه السنن. فالإنسان المهـــزوم يوعز الأحداث إلى القضـــاء والقـــدر، إذ يجهـــل البواعـــث الحقيقية لها، وينكر دوره من نشاط أو تقاعس فـــي الهـــزائم والانتصارات، وإذ خفيت علينا السنن والقـــوانين الفاعلـــة، اشتبهت الأمور، وظننا أنها الفوضى التي لا ضابط لها.

تقول فرقة "المضطربة"، وهـــي مـــن فـــرق الجبريـــة: لا فعل للآدمي بل الله عز وجل يفعل الكل، أي كل الأفعـــال خيرها وشرها، كما تقول فرقة الأفعالية، وهي أيضا من فرق الجبرية: لنا أفعال ولكن لا استطاعة لنا فيها، وإنمـــا نحـــن كالبهائم تقاد بالحبل. وذلك معناه ببساطة – نفـــي المســـئولية عن الناس، وتبرئة ساحة المجرمين والظلمة إذ ليس الأمـــر بيدهم فالله يفعل الكل – تعالى الله علوا كبيرا عما يقولون – وإنما الناس كالبهائم تقاد بالحبل! وتقول فرقة السابقية، مـــن الجبرية أيضًا: من شاء فليعمل ومن شـــاء لا يعمـــل، فـــإن السعيد لا تضره ذنوبه، والشقي لا ينفعه بره. إذ يرون الأمر جبرًا وقضاءً مقضيًّا لا حيلة للإنسان فيه.

وفهمنا أن الرزق على الله، فتواكلنا ولم نبذل قصارى الجهد – بل أقله – ظنا أن الرزق آت. وخذلنا أنفسنا بعدم بذل أفضل الجهد. ولم نأخذ بالأسباب التي أخذ بها غيرنا، فانتصروا وانهزمنا، ونجحوا وأخفقنا، وسادونا وأصبحنا لهم عبيدًا.

ويقول أصحاب فرقة الشريكية، من فرق القدرية، إن السيئات كلها مقدرة إلا الكفر. وذلك يفتح الباب على مصراعيه لتبرئه ساحة كل الظلمة والأشرار والمستبدين واللصوص، إذ السيئات مقدرة، ولا حيلة للإنسان فيما يفعله من شرور وآثام. لذا "أصبح المتغلب على الحكم يضيق بالفقيه الحنبلي الذي يقول هذا حرام وهذا مكروه، وأضحى يميل إلى الشيخ الصوفي الذي يحرق له البخور، ويرى كل الأفعال (صالحة أو طالحة) مصدرها من الله ولا سبيل للاعتراض عليها. ومن هنا بدأ التحالف بين الصوفية والحكام. وازدهر تيار التصوف برعاية الحكام ودخول أفراد العوام ليصيروا شيوخًا بدون تعب في طلب العلم الظاهر" [٦].

ويروج المستبدون لأفكار القضاء والقدر والامتثال للواقع حتى يرى المستضعفون أن تسلط المستبدين إنما هو قدر لا

يمكن رده، وإنكاره أو السعي لتغييره يعد من قبيل مصـــادمة إرادة الله وعدم الرضا بقضائه، مما ينتهي بوصم من يفعــل ذلك بالكفر والزندقة.

لما روّج معبد بن عبد الله الجهني لفكرة الإيمان بالقضاء والقدر وإثبات مسئولية الإنسان عن أفعاله، وأن السعي لتغيير الواقع لا يعد مصادمة لإرادة الله، تخوّف منـــه الأمويـــون، وأمر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بقتله، وتم القبض عليه وصلب في دمشق سنة ٨٠ هـــ. ويرى البعض أن قول المعتزلة بمسئولية الإنسان ونفي ارتهانه بالقضاء والقدر، كان سببا في علو مكانتهم في ظل العباسيين الذين كانوا يرون في إثبات مسئولية الإنسان عن فعله إدانة للأمـــويين وتحمـــيلهم مسئولية استبدادهم وظلمهم، ونفي إعفائهم من المسئولية عما اقترفوه.

"وعندما نحاول تحليل تلك القدريـــة التـــي يتميـــز بهـــا المستضعفون فسنجد أن لها جذورا اجتماعية وتاريخية، فهي غالبا ما تقترن عندهم بالحظ أو المصير الذي هو من صـــنع الله ولا يد للإنسان فيه، فمن خلال ممارســـة المستضـــعفين للسحر والأساطير يصلون إلى قناعة مؤداها أن كل ما يلحق

بهم من عناء واستبداد هو من مشيئة الله. وكأن الله – حاشاه جل شأنه – هو سبب هذه الفوضى المنظمة، فالمستضعفون بانغماسهم في حقائق الحياة وامتثالهم لحقيقة القهر المستبطنة داخلهم لا يتأتى لهم إدراك حقائق الوضع المزري الذي يعيشون فيه. وطالما ظل المستضعفون على غير وعي بأسباب قهرهم فسيظلون على قدريتهم في قبول واقعهم، بل قد يقفون موقفًا سلبيًّا حين يواجهون بضرورة النضال من أجل تحقيق حريتهم أو تأكيد ذواتهم) (٧).

"ويبالغ الصوفيون في التوكل مما دفع بهم إلى أقصى درجات الطمأنينة النفسية القائمة على أنهم لا يبالون بشيء، ويهملون الدنيا إهمالا مطلقًا، بل يتركون أنفسهم تركًا لعناية الله وقضائه، ويجعلونها بين يديه لا إرادة لها ولا حركة كالميت في يد الغاسل، فهم يبعدون عن محيط تفكيرهم أن يعنى المرء بمستقبله، وأن يرعى شئونه وحاجاته" (٨)، وذلك فهم خاطئ لمعنى التسليم لله والإيمان بقضائه وقدره. وقد قعد المتصوفون عن الكسب استثقالا له واستسهالا للتسول والاعتماد على الغير، وقالوا: لابد أن يصل إلينا رزقنا، ولو صح وصول الرزق إلى الناس مع قعودهم عن طلبه

لفسدت الأرض. فالتوكل في نظر المتصوفة وأتباعهم هو ترك الأسباب وانتظار الفرج من السماء أو من جهة ما، "ولو قال رجل للصوفية من أين أطعم عيالي لقالوا: قد أشركت. ولو سئلوا عمن يخرج إلى التجارة لقالوا ليس بمتوكل ولا موقن. وكل هذا لجهلهم بمعنى التوكل واليقين) [٩].

كما يرى الصوفية أن التوكل لا يصح لأحد عالج نفسه من علة بجسده إذ يرون أنه لا يجوز طلب المعافاة من غير الله ولو كان بدواء، وكأن التوكل هو ترك الأسباب. وقد غالى المتصوفون في نظرتهم إلى التوكل، إذ رأوه التماس الغايات بلا وسائل، حتى إنهم يرون دخول الصحارى القفراء بغير زاد، أو الانقطاع في المغارات الموحشة هو من التوكل وحسن الظن بالله، ولا يشكون في أن هذه بلاهة إذ يزينه لهم فقهاؤهم، "يقول لهم أبو حامد الغزالي: لا يجوز دخول المغارة بغير زاد، إلا بشرطين: أحدهما: أن يكون الإنسان قد راض نفسه حيث يمكنه الصبر على الطعام أسبوعا ونحوه، والثاني: أن يمكنه التقوت بالحشيش!! ولا تخلو البادية من أن يلقاه آدمي بعد أسبوع أو ينتهي إلى حشيش يزجي به وقته.

وأقبح ما في هذا القول أنه صدر من فقيه، فإنه قد لا يلقى أحدًا، وقد يضل وقد يمرض فلا يصلح له الحشيش، وقد يلقى من لا يطعمه، وقد يموت ولا يقابله أحد" [١٠]. وهذا رأي ابن الجوزي في الغزالي المسئول عن أسلمة التصوف وإعطائه طابعًا إسلاميا، فانخدع به العامة وانطلت عليهم كفريات وخرافات التصوف التي تصادم الدين الإسلامي الحنيف صدامًا واضحًا لا ينكره عاقل. "ولا يتخذ المؤمنون بالقضاء والقدر من الله، (الجبرية)، المبادرة الثورية أي لا يجنحون إلى التغيير، ولا يتحركون إلا في اللحظة الأخيرة عندما تظهر بوضوح شديد بوادر انهيار النظام القائم، فالجبري لا يأخذ المبادرة، وإنما يتحسس التيار ويسير معه، والجبري لا يثور ولا يغيِّر إلا إذ أحس أن التغيير قادم لا ريب فيه سواء اشترك فيه أم لا. وهذا يفسر سبب أن المجتمعات التي تعمقت فيها جذور الجبر لم تشهد ثورات ذات طابع دموي أو حتى شعبي واضح تأخذ زمام المبادرة، وإنما يأتي التحرك الشعبي متأخرا شيئا ما" [١١].

وينتقد علماء الحملة الفرنسية تواكل المصريين وسوء فهمهم للقضاء والقدر فيقولون: "ويعتقد المصريون بأن ليس

ثمة ما يحدث دون إرادة من الخالق، وأن ليس ثمة ما يمكنه رد قضائه ومشيئته التي لا محيص عنها. لذا ينظرون إلى الاحتياطات التي تم اللجوء إليها لمنع انتشار الطاعون بأمور لا جدوى منها، إذ إنهم لن يصابوا مطلقا بأذى إذا كان مقدرًا لهم أن يعيشوا. كما أن شيئا لا يمكن أن يحميهم إذا ما كانت مشيئة الله قد أرادت لهم أن يموتوا، ويقودهم الاعتقاد بالقضاء والقدر إلى استسلام لا حدود له يميزهم عن سائر الشعوب، ويفسر استسلامهم الطبيعي على الدوام بأنه خضوع أعمى لمشيئة القدر"[١٢]. وقد يغالى في الشطط فتُرى معالجة المرضى من قبيل عصيان الله ومعاندته إذ أنزل المرض والعلة بالناس فكيف يعالجون أنفسهم ويخالفون المشيئة الإلهية – ذلك كان موقف السلطات الكنسية في أوروبا في عصور ظلامها. ويفسر علماء الحملة الفرنسية – عندما درسوا الشخصية المصرية – ذلك الجمود المذهل في ملامح المصري بأنه يعود إلى "الاعتقاد في القضاء والقدر المنتشر بين الناس كافة، كما تعود في النهاية إلى تعودهم أن يكونوا على الدوام عرضة لنزوات الطغاة الذين يعم ظلمهم البلاد، ففي كل يوم تنشأ أخطاء وبشاعات جديدة، تصبح الغفلة معها

بالنسبة للمصريين والشرقيين عموما – نوعـا مـن الحيلـة لمواجهة هذا العسف، فعندما يعاقب الإنسـان علـى حركـة أو بسب نظرة أو أحيانا لمجرد الاشتباه كما لو أنه قد ارتكب جريمة، فإنه يصبح وقد اكتسب مقدرة عميقة على الاستيعاب بحيث تصبح هذه الأمور الجائرة حالات اعتيادية، لـذا فـلا ينبغي علينا أن نبحث عن مصدر آخر لأسباب هذا النوع من التسليم المستعذب للألم الذي يميز الشـرقيين علـى وجـه العموم، فالشكاوى والصيحات أمور لا فائدة منها أمـام إرادة الطغاة. ويعرف المصري كيف يمشي وقد أغضـبه الألـم، وكيف يموت تحت عصا القواس دون أن يقول كلمته، فهـذه إرادة الله، والله أكبر، والله غفور... وتلك فقط هي الكلمـات التي تأتي على لسانه عندما يبلغه نبأ نجاح لم يكن يتوقعـه، وهى نفسها التي تبدر عنه عندما يبلغه نبأ كارثة كبرى ألمت به" (١٣)، إنها عقيدة القضاء والقدر التي ترسخت في نفوسـنا على نحو خاطئ، فظننا أنها مجرد الامتثال والطاعة إذ كـل شيء (مكتوب على الجبين)، ولا جدوى من رد ظلم أو طلب مجد، أو التماس عدل. "ولسوف يظل المصري عبدا بائسـا سلبيا خاملا تدور به دوامات الشك دون أن يفكر في وضعه

المحزن. وربما تكون بلادته تلك هبة من القدر، إذ بفضلها لن يعذبه على الإطلاق ذلك الإحساس بالآلام والمخاطر التي تهدده بلا انقطاع"(١٤)

إن فكرة الجبر والحتمية وراء تدهور أحوال معتنقها، إذ تفضي إلى الخمول والتكاسل والتواكل وإلى الرضا العاجز بالأمر الواقع، وانعدام الهمة لمواجهة هذا الواقع، فهو لم يحاول تطويع الأمور الصعبة لأنه لا يؤمن بإمكان تطويع الأمور أو تغيير مسارها. كما أن إيمانه بالقدر سيدفعه لقبول الأمور التي لا يرى أنه لا مناص منها ولا مهرب. لذا عمد المعتزلة إلى تأكيد مسئولية الإنسان عن أفعاله كافة، وذلك في محاولة منهم للتصدي للتواكل، لا التوكل، الذي سيطر على العقل والضمير المسلم. "إن فكرة الجبر، أو قدر الله الحتمي، ليست مجرد فكرة أكاديمية نشأت بمعزل عن حركة المجتمع، وإنما هي فكرة فاعلة ومؤثرة ولها تطبيقاتها العملية، وهى فكرة قابلة للتوجيه... وبعد أن اتضح أثر الأفكار الحاكمة في تسيير حياة الأمة وصياغة مستقبلها وتحديد علاقاتها الاجتماعية، فهل من الحكمة أن نترك هذه الأفكار الحاكمة ليبثها فينا من يشاء ويبلورها في ضمائرنا

من يشاء، هل من الحكمة أن نتركها لواعظ أو خطيب، أم أن الحكمة أن نعتبر هذه الأفكار الحاكمة التـــي يمتــزج فيهــا الشعور باللاشعور، وما هو غيبي بما هو واقعي، مشــروعا قوميًّا أو مهمة عليا؟ لا بد إذن من لجنة أو هيئة فـــي جهــة ما لتصوغ مشروع مصر القومي في "الأفكار الحاكمة" التي تؤتي نتائج إيجابية، فهذه الجهــات ليســت مهمتهــا جمــع المعلومات فقط، وإنما بثها أيضا" (١٥).

القضاء والقدر

١. مونتجمري وات – القضاء والقدر – مقدمة بقلم
٢. الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ.
٣. رفاعة رافع الطهطاوي – تخليص الإبريز
٤. ابن تيمية – العبودية
٥. ابن زنبل الرمال – آخرة المماليك
٦. عبد الكريم الخطيب – القضاء والقدر
٧. د. أحمد صبحي منصور – العقائد الدينية في مصر
٨. المملوكية بين الإسلام والتصوف.
٩. باولو فرايري – تعليم المقهورين.
١٠. جولد تسيهر – الشريعة والعقيدة في الإسلام.
١١. ابن الجوزي – تلبيس إبليس
١٢. المرجع السابق

١٣. مونتجمري وات – القضاء والقدر – مقدمة بقلم

١٤. الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ.

١٥. علماء الحملة الفرنسية – وصف مصر – الجزء

١٦. الأول

١٧. المرجع السابق

١٨. المرجع السابق

١٩. مونتجمري وات – القضاء والقدر – مقدمة بقلم

٢٠. الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ.

الفصل الثالث

التصوف

- إبراهيم الدسوقي بيده أبواب الجنة والنار يغلقها ويفتحها
- كيف شاء.
- الصوفي أبو يزيد البسطامي: إن بطشي أشد من بطش
- الله.
- الصوفي الشلمغاني يبيح الزنى واللواط ويعتقد أنه إله
- الآلهة.

- الصوفي التلمسانى – لعنه الله – يقول: القرآن كله شرك.
- السيد البدوي يأتي بالأسرى طائرين من الشام إلى سطح منزله في طنطا.

التصوف

هل الصوفيون زهاد أبرار وعُبَّاد أطهار أم زنادقة فجـــار ونصابون كفار؟

التصوف عقيدة تختلف عن الإسلام جذريًّا ولا تمت لديننا الحنيف بصلة، وإنما تدثر الصوفيون بدثار الإسلام اســتمالة للناس وخداعًا للعامة واجتذابًا للسلاطين وأولي الأمر واتقـــاء للفقهاء، ولتجنب الصدام مع صادقي الإيمان من المســلمين. ومن يطالع كتب الصوفيين التي سجلوا فيها ديانتهم وبهتانهم يكشف بيسر مدى ما هم عليه من ضلال وإفك مبين. ولمـــا كان المرء مخبوءا تحت لسانه، فذلك قــولهم، اســمع قــول إبراهيم الدسوقي المدفون في دسوق: "أنا بيدي أبواب النـــار أغلقتها، وبيدي جنة الفردوس فتحتها، ومن زارني أســكنته جنة الفردوس" [١]. ويقول: "لقد وليت القطبائية – أي أصبح قطبًا – فرأيت المشرقيْن والمغربيْن ومـــا تحـــت النجــوم، وصافحت جبريل عليه السلام" [٢].

ويقول الحسن الشاذلي (شيخ المرسي أبي العبـــاس) فـــي حزبه: (اللهم أدرج أسمائي تحت أسمائك، وصـــفاتي تحـــت صفاتك، وأفعالي تحت أفعالك، وأغنني حتـــى تغنـــى بـــي،

وأحيني حتى تحيا بي)[٣]. تعالى الله عما يصفون. ويقول المرسي أبو العباس المدفون في الإسكندرية: لو كُشف عن حقيقة الولي لَعُبد، لأن أوصافه من أوصافه – أي أوصاف الله – ونعوته من نعوته [٤]. ويقول الصوفي الشهير أبو يزيد البسطامي: (طاعتك لي يا رب أعظم من طاعتي لك)، كما يقول (بطشي أشد من بطش الله بي، وذلك لما سمع قارئًا يقرأ: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ (البروج: ١٢). وقال لبعض مريديه: (لأن تراني مرة خير لك من أن ترى ربك ألف مرة). ويقول الشبلي: (ما في الجبة إلا الله)، يقصد أنه هو الله.

ويقول الدسوقي: (إنني سددت أبواب جهنم السبع بفوطتي، وفتحتها لأعدائي وأدخلتهم فيها، وفتحت أبواب الجنة الثمانية بيدي، وأدخلت أمة محمد صلى الله عليه وسلم فيها، وصنج الميزان بيدي أصيِّر حسنات مريدي أثقل من سيئاتهم، ومسستها بيدي فصارت سيئات المنكرين عليّ أثقل من حسناتهم ولو كانوا مطيعين) [٥]. أي أنه سيمارس الغش والتدليس في الآخرة وبين يدي الله تعالى يوم الحساب. وذلك قليل من كثير مما ورد في كتبهم قاتلهم الله.

وأستأذن حياء القارئ وغيرته على الـــدين إذ أســتطرد، "كان الصوفي ابن أبى الغراقيــد وهــو محمــد بــن علـــي الشلمغانى، يعتقد أنه إله الآلهة، وقال إن الله تعالى حلَّ فـــي آدم وإبليس. وألّف كتابه الحاسة السادسة صرَّح فيه بـــرفض الشريعة، وإباحة اللواط، وزعم أنه إيلاج نور الفاضـــل فـــي المفضول، ولذا أباح أتباعه نساءهم له، طمعًا في إيلاج نوره فيهن. وكان – قاتله الله – يسمي محمــدًا صـــلى الله عليـــه وسلم، وموسى عليه السلام بالخائنيْن، زعمًا منه أن هـــارون أرسل موسى، وأن عليًّا كرم الله وجهه أرسل محمدًا صـــلى الله عليه وسلم، فخاناهما. وحكم الفقهاء بقتله، فصـــلب فـــي خلافه الراضي ســـنة ٣٢٢ هجريـــة" [٦]. "وأن الحكمـــة أن يمتحن الناس بإباحة فروج نسائهم، وأنه يجـــوز أن يجـــامع الإنسان من شاء من ذوي رحمه، ورحم صديقه وابنه، بعـــد أن يكون على مذهبه" [٧].

ويقول ابن عربي وهو محيي الـــدين محمـــد بـــن علـــي الأندلسي المعروف بالشيخ الأكبر والكبريت الأحمر وهو إمام الصوفيين، المولود سنة ٥٦٠ هـــ في مرسيه – بلد المرسي أبى العباس – يقول: (الرجل والمرأة صورتان مـــن صـــور

الله، يعني حقيقته تتجلى في صورتي رجل وامرأة – تعالى الله علوا كبيرًا عما يصفون – وفى حالة المواقعة يسمى الرجل فاعلا والمرأة منفعلة) [٨].

ويقول ابن الفارض المعروف عند الصوفية باسم سلطان العاشقين، وقد ادعى الألوهية أيضًا كدأب أقطاب الصوفيين، قال في قصيدته المطوَّلة (حوالي ٨٠٠ بيت) والمعروفة باسم التائية والتي يخاطب فيها الله تعالى بضمير المؤنث، قال: (إن لُبْنَى وبثينة وعزَّة وليلى – عاشقات شهيرات – ما هن إلا الذات الإلهية تعينت في صورة الغواني العاشقات، وأن قيسًا وجميلا وكثير وعامرا، عشاق أولئك النسوة، ما هم إلا الذات الإلهية تعينت في صورة هؤلاء العشاق. فمن خصائص الإله الصوفي أنه يتجلى في صورة رجل عاشق، وفي صورة امرأة عاشقة، وأنه حين يعشق فإنما يعشق نفسه، فهو العاشق والمعشوق والعشق.. وبهذا لقبوه – أي ابن الفارض – بسلطان العاشقين) [٩]. وللصوفيين غير ذلك من سخيف الأقوال ما يستنطق الأفواه بذمهم.

تلك كانت بعض كفرياتهم وأباطيلهم التي ادعوا فيها الألوهية واجترءوا بها على الله جل جلاله. كما لم يفتهم

الاجتراء على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والافتراء عليه. يقول ابن عجيبة في شرحه لحكم ابن عطاء الله السكندري، يقول: (وأما واضع هذا العلم – أي التصوف – فهو النبي صلى الله عليه وسلم، علّمه الله له بالوحي والإلهام، فنزل جبريل أولا بالشريعة، فلما تقررت نزل ثانيًّا بالحقيقة، فخص بها بعضًا دون بعض)، وهذا اتهام صريح للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه لم يبلغ بعض ما أنزل إليه، وبأنه هوى مع الهوى فخص به بعضًا" [١٠] وما أفدح بهتانهم أن التصوف مما أوحي به للنبي. كذلك اجترءوا على القرآن الكريم، فيقول التلمساني أحد أقطاب الصوفية: (القرآن كله شرك، والتوحيد في كلامنا) [١١] – أي في كلام الصوفيين.

ومن يتأمل أقوال المتصوفين يرى أنهم مرضى نفسيون وعقليون. قال أبو يزيد البسطامي، وهو من أقطابهم: وما النار؟ والله لئن رأيتها لأطفئنها بطرف مرقعتي. ويقول في موضع آخر: سبحاني سبحاني، أنا ربي الأعلى. وسئل عن اللوح المحفوظ، فقال: أنا اللوح المحفوظ. ويقول: (إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدونِ) [١٢]. (وقال الشبلي: إن لله عبادًا لو بزقوا على جهنم لأطفئوها) [١٣]

وليس أدل على أنهم كفرة عُتَهَاء من قولهم: (إن رتبة الكمال لا تحصل إلا لمن رأى أهله – زوجته – مع أجنبي – أي يضاجعها – فلم يقشعر جلده، فإن اقشعر جلده فهو ملتفت إلى حظ نفسه ولم يكمل إيمانه بعد) [١٤].

إن التصوف خلط من بقايا الديانات القديمة، واندماج نفايات الوثنيات الغابرة، والفلسفات القديمة وعلى رأسها مذهب الغنوصية، وهى كلمة يونانية معناها "المعرفة"، ويُقصد بها التوصل إلى المعارف لا بالدرس والتعلم وإنما بما يُلقى في الروع والقلب وحيا وكشفاً وليس عن طريق الاستدلال والبرهان العقلي. وفضل المعرفة وكشف الحقائق وحيًا، ادَّعاه كل السحرة والكهان على مر الأزمان، وأسبغوا على أنفسهم قدرات وهمية سوَّغت لهم الهيمنة على القبيلة والعوام، وجنوا من وراء ذلك الهبات والنذور والأموال الطائلة، فغاية الغايات هي الارتزاق باسم الدين، "وقد أثَّرت الغنوصية في اليهودية وسيطرت على فيلسوفها الكبير "فيلون"، وقد عرف المسلمون الغنوصية اليهودية، ونرى كثيرًا من أفكار فيلون منبثة في كتب كبار الصوفية الإسلاميين. ومحيي الدين بن عربي – الشيخ الأكبر – إنما

هو صورة أخرى من "فيلون") [١٥]. وابن عربي هـذا هـو كبيرهم الذي علمهم الإفك، فادعى زورا وبهتانـا أن النبـي صلى الله عليه وسلم جاءه في منامـه، ودلـه علـى كتـاب "فصوص الحكم"، وهو كتابهم المملـوء بالكـذب والشـرك، وأمره بتبليغه للناس. وكأن الله تعالى قد توفّى رسوله الكريم قبل أن يستكمل إبلاغ رسالة الإسلام، وهو القائل: ﴿ **الْيَـوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا** ﴾.

وعرف المسلمون أيضا فرقة غنوصية تعيش في العـالم الإسلامي وتزاول طقوسها وهى فرقة الشيليين، ومؤسس هذه الفرقة هو شيلي من طائفة المغتسلة، ويرى المسـلمون أنـه كـان يميـل إلـى مـذهب اليهوديـة ويأخـذ بـه. وما غلاة الإسماعيلية والقرامطة والباطنية قديما إلا صـورة مستورة من الغنوصية التي تعرف في عصرنا الراهن بالبابية والبهائية.

وكلما زاد تباين التصورات المختلفة للعالم، كلما استترت الحقيقة وراء الرؤى الضبابية والغموض بفعـل اللاعقلانيـة والمذهبية، فتنتشر الخرافات وتسيطر على العقل البشـري.

وذلك هو عين ما حدث بفعل ظاهرة التصوف، وما حوت من خرافات وأضاليل باعدت بين الناس ودينهم الحنيف، وانتهت بهم إلى البوار بعد أن مسختهم إلى مجرد أشياء ودراويش ومجاذيب.

وتتشابه الصوفية مع مذهب الكلبيين الذين يقولون باحتقار العلم والمعرفة والأخلاق، وقد زاد أنصار هذا المذهب نتيجة للقلق والفوضى والحروب والمجاعات التي أرهقت الناس. ومن الشرق الهيلينستي انتقل هذا المذهب إلى روما وإيطاليا كرد فعل للحروب الكثيرة التي خاضتها الجمهورية الرومانية، وزاد أتباع هذا المذهب منذ عهد الأسرة اليوليوكلاودية كرد فعل لتسلطها وجبروتها، وكانوا يتجولون في ثياب رثة مطلقين لحاهم وشعورهم ويسيرون حفاة يتسولون، وانضم إليهم المنجمون والسحرة والمشعوذون، وأصدر الإمبراطور فسباسيانوس سنة ٧١ م أمرًا بطردهم من البلاد، الأمر الذي لم يجرؤ عليه خليفة مسلم مع المتصوفين.

يقول هـ. ج. ويلز: "كان الزهاد موجودين في بلاد الشرق قبل عهد بوذا بزمن مديد، وانصرم القرنان الأول

والثاني الميلاديان والعالم كله غارق أو يكاد في نزوعه إلى التبرؤ من الحياة، ممعن في نشدانه العام "للخلاص" من محن الزمان. فقد ولَّى من الدنيا الشعور القديم باستقرار النظام، وولت معه الثقة القديمة في القسيس والمعبد والقانون والعرف. وفى هذا المناخ الذي يسوده الرق والخوف والقلق والتهافت على إشباع الملذات، كان ينتشر في الناس هذا الوباء، وباء الاشمئزاز الذاتي وعدم الاطمئنان العقلي. وكان يتفشى فيهم هذا الالتماس الأليم للسلام وإن نالوه مقابل التخلي عن الدنيا) (١٦). تلك إذن هي الظروف المولِّدة لحركات الزهد والتقشف: انعدام الشعور باستقرار النظام، سواء النظام السياسي أو الاقتصادي، وانعدام الثقة في القسيس والمعبد (أي رجل الدين، والدين نفسه المرموز له بالمعبد)، والقانون والعرف، القانون الذي لا يحمي الضعيف أو يحاسب القوى، القانون الذي يطبَّق بصرامة على العامة وغير ذي الطول والضعيف والفقير، ويتهاون مع النبلاء والقوي والغني، والعرف الذي يقر هذه التجاوزات ويظلها بمظلة القبول والموافقة. وكأنه يتحدث عن القانون والعرف والأحوال منذ أيام العباسيين وحتى عصر المماليك. تلك كانت ظاهرة الزهد

والتقشف ونبذ الدنيا، وهى الظاهرة التي شهد ميلادها عالمنا الإسلامي في القرن الثاني الهجري، وهى تختلف عن ظاهرة التصوف التي نشأت بعد ذلك وإن زعم الصوفيون أنهم امتداد للزهاد والراغبين عن الدنيا، فقد قالوا بهذا كسبًا لمحبة العامة الذين كانوا يجلِّون الزهاد، وتجنبًا للصدام مع رجال الدين.

ويقول الصوفيون بالحلول، أي أن الله حالٌّ في كل شيء – تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا. ومنهم من يقول بالاتحاد، أي اندماج الخالق بالمخلوق ويصيران شيئًا واحدًا. كان أبو حمزة – أحد أقطابهم – حلوليًّا، وذلك (أنه كان إذا سمع صوتًا مثل هبوب الريح وخرير الماء وصياح الطيور، كان يصيح بقوله: لبيك، فرموه بالحلول) (١٧). وكان الحلاج قد ادعى النبوة ثم الألوهية، إذ كتب كتابًا عنوانه: من الرحمن الرحيم إلى فلان، ولما سئل في ذلك أجاب: وهل الكاتب إلا الله تعالى، واليد فيه آلة، وكان يسمي نفسه الحق، وأباح الحج إلى غير مكة، والإفطار في شهر رمضان، وأعفى من العبادة من زار قبور الشهداء بمقابر قريش وأقام بها عشرة أيام يقضيها في الصلاة. ولم تقف دعوة الحلاج

عند التأثير على العامة، بل شملت كثيرًا من رجـال الـبلاط والكتاب وبعض كبار الهاشميين" [١٨]. وقتل الحلاج في ٣٠٩ هجرية بسبب ادعاء الألوهية.

ووحدة الوجود التي قال بها محيى الدين ابن عربـي، أي نفي الثنائية بين الله والكون، إنما هي فكـرة تشـبه كثيـرًا المفهوم الذهني الهندوسي عن الكون الذي يعتبرونه مجـرد وهم وسراب. وبالفعل تم المزج بين الإسلام والهندوسية في عهد جلال الدين محمد الأكبر (١٥٥٦ – ١٦٠٥) وهو حفيد مؤسس الأسرة الحاكمة المغولية في الهند، وقد شجع مشـايخ الصوفية وخصوصًا الطريقة "الشستية"، ولم يلبث أن أعلـن عن عقيدة جديدة خاصة به سماها (دين الله)، وهى نتاج مزج بين الإسلام والديانات الأخرى، وكان عماد هذه الملة الجديدة الكثير من مبادئ الصوفية والتحلل من الإسلام الحنيف، لـذا يمكن القول إن فكرة وحدة الوجود هي التي فتحت الباب أمام تدفقات الهندوسية إلى داخل الدين الإسلامي.

ولم يقل لنا أحد، ما دام المتصوفون والهُبَّل والأولياء لهم هذه القدرات الهائلة وهم موصولون بالله والسماء ومطَّلعـون على اللوح المحفوظ، فأين كانوا في مواطن مذلة المسـلمين

ومواقع هزائمهم – وما أكثرها – أين كان الدراويش عندما سحق التتار جيوش المسلمين في بغداد وغيرها من المواقع؟ أين كان هؤلاء المغاوير الأطهار أصحاب الرؤى الصادقة والقلوب الخاشعة والأرواح الكاشفة. أم أنهم تقاعسوا، مع المقدرة، وهذا أدهى وأمر، ولمَّا كانت علينا دروع الدراويش والأولياء لماذا أصابنا نبل العدو في مقتل ؟

وتشكل سلوكنا وفقًا لهذه الأوهام. انظر كيف تصدى العوام والمجاذيب لفرسان نابليون في القاهرة، نزلوا من القلعة وهم يحملون النبابيت وتقدَّمهم البله والمجاذيب ومعهم سلاحهم البتار... قطعة قماش سموها البيرق النبوي وظنوا أنها الراية التي كان يحملها جنود جيش النبي صلى الله عليه وسلم في غزواته. فدكَّتهم مدافع الفرنسيين دكًّا دكًّا، ولم يجدهم فتيلا شيوخهم ذوو العمائم الضخمة الذين يمشون على الماء ويطيرون في الهواء، ولم يغثهم أقطابهم المدفونون في الأضرحة يطلبون منهم البركات والمغفرة. ولا يغرنك ذيوع ظاهرة التصوف في تاريخنا، فالقول بدوام سيادة الحق وظهوره على الباطل قول غير صحيح، ولكننا نرتاح إلى التسليم به. فشواهد التاريخ، والتاريخ هو المعلم الذي يصدقنا

القول، تؤكد لنا أن السيادة والفوز والظهور لا تكـــون دائمًـــا للحق، وإنما له جولات، وللباطل مثلها، أو تزيد. وإذا كـــان الناس قد انخرطوا في سلك المتصوفين لا لشـــيء غيـــر أن الغير يفعلون ذلك، فالأمر إذن هو التقليد المحـــض، وكـــان خليق بهم ألاَّ يقلدوا، فالتقليد من شيم القرود. وكـــأن هنـــاك اتفاقًا ضمنيًّا على قبول ظاهرة التصوف، والتسليم بأضاليلها واستبعاد مناقشتها وتمحيصها بالتجربة، "والبون شاسع بـــين افتراض الصواب في رأي من الآراء لأن الدليل لم يقم على خطئه وفساده مع تعريضه للمناقشة والانتقاد، وبين افتراض الصواب فيه، لا لغرض سوى صيانته من التفنيد وحمايته من الادحاض" (١٩).

والتصوف ليس إسلامًا وإنما عقيدة جديدة جـــاءت بعـــد الإسلام بقرنين، والمشرِّع فيها هو الشـــيخ الصـــوفي الـــذي يشرِّع لأتباعه حسب ما يمليه عليه هواه وشيطانه. ولما كان البون شاسعًا بين إفك الشيخ وشرعة الله تعـــالي، ولابـــد أن يكون البون شاسعًا، فقد لجأ شيوخهم إلى "الشطحات" وهـــي محاولات لتأويل إفكهم على نحو يبدو معه موافقًـــا للإســـلام الصحيح. ومثلما يلجئون إلى التأويل، يقولون أيضًا بـــالتقَوُّل

وهو أن ينسبوا ما يتعذر عليهم تأويله من أكاذيبهم إلـــى دس أعدائهم ولهم في التأويل خلط وخبط كلمـــا أرادوا الاقتـــراب مما يوافق العقل، ازدادوا بعدًا. وقد درجـــوا علـــى انتقـــاد ومهاجمة معاصريهم من الصـــوفيين والإشـــادة بشـــيوخهم السابقين من باب التقية والنفاق وذر الرماد في العيون.

وتتكون الخلية الصوفية من الشيخ والمريـــد أي الأســـتاذ والتلميذ. وعلى المريد أن يطيع شيخه في السر والعلن طاعة عمياء تصل إلى حد سلب الإرادة، حتى إن المريد لا يقـــوى علــــى مــــد قدميــــه إلا بعـــــد اســــتئذان شــــيخه، ولا يمكنه جماع زوجته، أو تناول طعامه إلا باستئذان شيخه حتى في سره. إنه سحق للإرادة والكرامة حتى غـــدا هـــذا التابع الرقيق مسخًا بلا حول ولا قوة كالميت في يد الغاســـل وكيف يطلب من هـــذا المخلـــوق المســـخ مدافعـــة الظلـــم أو التصدي لغاز أو طلب علم، بعد أن سلبه شـــيخه الإرادة. ويرون أن المريد لابد له من شيخ، ومن لا شيخ له فالشيطان شيخه، وأن قلب المريد بيد شيخه يصرفه بهواه، وأن غضب الشيخ من غضب الله، وأن طاعة الأشياخ مقدمة على طاعة الله، ويتمادون في غيهم فيقولون بأن الولي أفضل من النبي،

وأن العارف يسمع كلام الله كما سمعه موسى عليه السلام، أي مباشرة وليس وحيا، الأمر الذي لم يحصل لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

والولي عندهم يعلم الشريعة والحقيقة، ولكن النبي والرسول لا يعلمان سوى الشريعة أو الظاهر فحسب، وما مصدر هذه الحقيقة في نظرهم؟ ليس العقل، وإنما الذوق من "التذوق"، لذا فهم يقولون من ذاق عرف. أمّا العقل فيكفرون به ويرونه حجابا يستر الحقيقة، فمنابذة العقل والشرع هي الدعامة الأساسية للصوفية. وتدين العوام، بل والخواص، بالطاعة العمياء للشيخ وبتقديس الولي الصوفي وتأليهه، فيلتمسون منه البركات والشفاء والمغفرة حتى ولو كان معتوها مجذوبا يسير عاريا في الشوارع أو جثة قد رُمَّت تحت قبة ضريح. وكان الإيمان بالشيوخ شائعًا في زمن المماليك، حتى أنه إذا أقسم أحد على أحد بشيخه – لا بالله – كان حقا عليه أن يبره.

عندما قام طومان باي سلطان مصر بمبارزة القائد المملوكي الخائن قانبردي الغزالي الذي حارب في صف العثمانيين، دارت الدائرة عليه ووقع من فوق حصانه، وهمَّ

السلطان بقتله، إلا أنه استعطفه وأقسم عليه قائلا: إني سألتك بالله تعالى، وتوسلت إليك برسول الله، وبسر شيخك سـيدي أبي السعود الجارحي أن تجعلني عتيقك في هذا اليـوم" [٢٠]. فعفا عنه السلطان من فوره وبلا تردد، إذ أقسم عليه بعزيز، شيخه أبي السعود الجارحي.

وموطن الخطر هو اللبس الذي ترسخ في عقول المسلمين فلم يتبينوا حقيقة الصوفية وظنوا أنها الدين. وفـاقم الأمـر إعراض وتراخي رجال الدين عن خوض معركة هم رجالها لإظهار الحق لجهال العامة الذين يتحلقون حول كل زاعـق، ويؤمنون بكل فرية. ويسترهب الصوفيون النـاس لصـرفهم عن مناجذتهم وفضح أضاليلهم، فيشيعون أن من يميل عنهم، أو يميل عليهم، فإنه يصاب في نفسه أو مالـه، لـذا يـرى ضعاف الإيمان والدهماء أن التسليم بما جـاءوا بـه أسـلم، وينصرفون عنهم إيثارًا للسلامة.

ويرى الشعراني (أن من أشرك بشيخه شيخًا آخر وقع في الشرك بالله) [٢١]. ويقول ابن عطاء الله السكندري: (من أخذ الطريق على غير شيخه، كان على غير دين) [٢٢]، تلك هي بعض مفتريات الصوفيين ومسامير نعوشهم، وخليق بنـا، إذ

فهمنا إفكهم، أن نكون المطـــارق التـــي تـــدق رءوس تلـــك المسامير، فلعمري إن دحض أباطيلهم لمن أرجى الأعمال.

ويعمد أولو الأمر إلى التهـــرب مـــن مواجهـــة ضـــلال الصوفيين خشية تأليب العامة الذين يـــدينون فـــي الواقـــع، لا بالإسلام الذي يكلفهم مشقة الطاعات، وإنما بالصوفية التي تبيح لهم كل المحظورات وتعفيهم من التكـــاليف العباديـــة، وتجتذب الجهلة إذ سيصبحون علماء دون تعليم أو بذل جهد في الدرس والتعلم. ولم يجرؤ أحد علـــى التصـــدي حتـــى لمجاذيب الصوفية الذين حظوا بإجلال ســـلاطين المماليـــك، فكان السلطان الغوري يعتقد في الصوفيين حتى أنه قبّل يـــد ابن عنان وهو صوفي مجذوب، وذلك على مرأى من الناس، ثم لقَّب نفسه بأبي الفقراء والمساكين حبًّـــا فـــي الصـــوفيين وتقربا منهم. وزار السلطان الأشرف قايتباي مقامي إبـــراهيم الدسوقي، والسيد البدوي، كما عيّن السلطان الظاهر بيبرس، إبراهيم الدسوقي شيخاً للإسلام، وبنى له زاوية في دسوق.

(في سنة ١٧١٤م تسامع الناس بواعظ رومي في مسجد السلطان المؤيد بالقاهرة، ومن جملـــة وعظـــه أن كرامـــات الأولياء تنقطع بالموت وما يذكر لهم من كرامات بعد موتهم

باطل، وما نقله الشعراني في كتاب الطبقات الكبرى بأن الأولياء لهم اطلاع على اللوح المحفوظ فباطل، لا أصل له، ومن يقول بذلك كافر. وحض الواعظ المسلمين على هدم القباب المبنية على قبور الموتى والتكايا وأضرحة الأولياء. وحرض على منع الأولياء الفقراء الذين يذكرون الجلالة في رمضان عند باب زويلة بعد العشاء، أي حلقات الذكر التي يعملها المتصوفون. ولما سمعت العامة هذا القول خرجت بالنبابيت والسيوف على حلقات ذكر المتصوفين. وتوجه بعض الناس إلى الشيوخ المالكية والحنفية والشافعية، فأنكروا كلام الواعظ وقالوا إنه (معتزلي)، وأفتوا ببطلان فتاوى ومحاضرات الواعظ ووصل الأمر إلى ولاة الأمر فخشوا الفتنة والثورة، فطاردوا الواعظ وأتباعه بعساكرهم حتى انتهى الأمر) [٢٣]. كان ذلك مبلغ إيمان "فقهاء" المسلمين وانقلاب الحق عندهم باطلا. "ولم يحظ واعظنا الرومي المسكين بما حظي به الراهب الفرانسسكاني أنطوان فريه الذي منعه حاكم باريس من الوعظ لأنه ندد بشدة بسوء الحكم، إذ انبرت بعض النساء لحراسته ليلا ونهارًا في دير (كورديلبيه) وقد تسلحن بالأحجار والهراوات لحمايته" [٢٤].

يقول جولد تسيهر (إن تقديس الأولياء في الإسلام، هيأ المجال للعقائد الشعبية لكي تؤثر على الشعائر الإسلامية، ففشت فيها العناصر الهندية، وتفاقم أثرها شيئًا فشيئًا حتى أنتجت ظواهر دينية فريدة تسترعي النظر، فتحولت الآلهة الهندية القديمة إلى مجموعة من الأولياء) (٢٥).

(ومن عالم الصوفية ولدت في هذا العصر فرقتان من فرق الضلال هما فرقتا القاديانية والبهائية. وادعى مؤسس القاديانية الذي ظهر في الهند في أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي أنه رسول مجدد للدعوة إلى الإسلام، ثم انتقل إلى ادعاء أنه المسيح، وأن روح الله حلت به، وأخيرًا، ادعى أنه هو الله نفسه) [٢٦]، تعالى الله عما يصفون.

ولما كانت الرؤى والأضاليل التي تنشرها الصوفية تهدف إلى تبلد الإدراك وتفريغ الدين من مضمونه وإبطال العقل، فقد رعى المستبدون المتصوفين ولاسيما في العصرين المملوكي والعثماني حيث اشتدت وطأة الفساد ومست الحاجة إليهم – المتصوفين – للتخفيف من الضغوط المطالبة بالتغيير الاجتماعي والسياسي. وبنوا الخانقاوات لإيواء المتصوفين

للعبادة، وكان أول ظهورها في إيران، ولــيس مــن قبيــل الصدفة انتشار هذه الخانقاوات بعد القرن الرابــع الهجــري بالذات وهو قرن بداية إغلاق بــاب الاجتهــاد واضــمحلال الأنشطة العقلية وإصابة العقل بالانكماش والتجمد. "وارتبطت وظيفة بعض الخانقاوات في عصر المماليك ببعض المظاهر الدينية نحو إقامة خطبة الجمعة، ولذا أطلق عليهــا الجــامع الخانقاه تمييزًا لها عن المسجد الجامع الذي اقتصرت وظيفته على إقامة الصلاة. وفى عهد المماليك البحرية كان لــبعض الخانقاوات غرض مزدوج يجمع ما بــين الطــابع الــديني والتعليمي. وقد أطلق على هذا الضرب من الخانقاوات اســم المدرسة الخانقاه تمييزًا لها عن الخانقــاه الموقوفــة علــى الغرض التعليمي فحسب) (٢٧). ولاحظ إسناد مهمة مخاطبــة عقول العامة إلى أهل الخانقاوات من المتصوفة والــدراويش ممن تكفلهم السلطة وتنفق عليهم، ثم لاحظ الوظيفة التعليمية المسندة إليهم، وعدم الاكتفاء بالدور الإعلامــي. وتــذكر أن رجال الدين ووعــاظ المســاجد الآن موظفــون حكوميــون لا يقدرون على مخالفة السلطة وإلا فقدوا وظائفهم.

ويصف ابن الجوزي أحـوال المتصـوفة فـي التكايـا والخانقاوات فيقول: "وكان جمهور المتصوفة يستريحون في الأربطة من كد المعاش متشاغلين بالأكل والشرب والغنـاء والرقص، يطلبون الدنيا من كل ظالم، وأكثر أربطـتهم قـد بناها الظلمة ووقفوا عليها الأموال الخبيثة. ومال متـأخروهم إلى الدنيا وجمع المال من أي وجه كان، إيثارًا للراحة وحب الشهوات. فمنهم من يقدر على الكسب ولا يعمل، ويجلس في الرباط أو المسجد ويعتمد على صدقات الناس" [٢٨]. وربمـا كان ذلك امتثالا منهم لقول الشعراني فـي معـاداة العمـل والتوكل، إذ يقول: "لا يبلغ الرجل إلى منازل الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة، وأولاده كأنهم أيتام، ويأوي إلـى منازل الكلاب" [٢٩]. واعتاد الصوفيون جمـع المـال مـن الموسرين والأغنياء للاحتفال بموالدهم حتى ضاق بهم الناس ذرعًا وقالوا: "لقد سئمت نفوسنا من كثـرة سـؤال هـؤلاء المشايخ الذين يعملون الموالد، فلـم يتركـوا عنـدنا عسـلا ولا أرزًا ولا عدسًا ولا بسلة، إيش قـام علـى هـؤلاء أن يشحذوا ويعملوا لهم موالد" [٣٠]. وكـان النسـاء والرجـال والصبيان يجتمعون في الموالد مرتكبين مختلف المنكـرات.

وهذه الموالد فرص للمنافع التجارية والبيع والشــراء، لــذا حرص أتباع السيد البدوي على الاحتفال بثلاثة موالــد لــه: المولد الكبير، والصغير، والرجبي، وفي المولد الأخير يــتم تجديد العمامة، لذا يعرف بمولد لف العمامة!!. وتحدد مواعيد هذه الموالد بالشهور القبطية! إذ يتحدد بها مواســم الحصــاد وجني المحاصيل فيذهب الفلاحون البسطاء ومعهم نقــودهم بعد بيع غلة الأرض، أي أن الهدف ليس دينيًّــا. (وأصــبح التصوف في نهاية العصر المملوكي أداة لكسب العيش" [٣١].

ولما كانت ثورات الأمم تبدأ بالعقول وليس البطون كمــا يرى الكثيرون – فقد يجوع الناس ويسلبهم المماليك أقواتهم، ومع ذلك لا يثورون. ولكن إذا استناروا – أي الناس استردوا عقولهم التي يعرفون بها أنهم ليسوا مــن دواب الســلطان، عندئذ يهبون ثائرين لكرامتهم وإنسانيتهم. لذا يحاذر المســتبد من استنارة العقول، ويعمل جاهدا للحيلولــة دون اســترداد الناس لعقولهم. وجهوده المبذولة في هذا المسعى تفوق كثيرًا جهوده المبذولة في توقي ثورتهم من باب الجوع والفاقة. لذا يرى المستبد انتشار الصوفية خير معين له على تغييب عقول

الناس التي يفسدها الجهل وتزييف الدين وقهر المستبد وأضاليل المتصوفة.

ووقف المتصوفة في الجهة المقابلة للعقل، وحاولوا خوض معركة المعرفة بسلاح القلب وحده، فضلّوا وأضلوا. وموطن الخطر في ظاهرة التصوف يتمثل في استمرار فعاليتها وتأثيرها في المجتمع المسلم حتى الآن، إذ مازالت تؤثر في الطبقات الشعبية وجموع الأميين وهم كثر، كما تؤثر في قطاع لا يُستهان به من أشباه المتعلمين الذين يتحلقون في حلقات الذكر، ويتمسحون في الأضرحة، ويطلبون قضاء حوائجهم وشفاء مرضاهم، لا من الله تعالى، وإنما من قبور شيوخهم ومريديهم الذين ينسبون إليهم الكرامات والخوارق، ويختزن أتباع الصوفية المعاصرين في ضمائرهم كل أوزار التصوف، وعلى رأسها معاداة العقل ونبذ طلب العلم، والإيمان بالشيوخ والمريدين والأولياء، وطلب الشفاعة والبركة من الأضرحة والقبور.

ويعادي الصوفيون العلم إذ اعتبروه علم الظاهر، وادعوا اختصاصهم بالعلم الحقيقي العلم الديني الذي يأتيهم وحيا وكشفاً من الله مباشرة دون مشقة درس أو تعليم، الأمر الذي

أغرى العامة واجتذب الجهلة للانخراط في جموع الصوفيين إذ يسقط عنهم فيما بعد – التكاليف العبادية من صلاة وصوم وزكاة وحج، ويبيح لهم الزنى واللواط، ويدخلهم في زمرة العلماء والفقهاء وإن كانوا أميين. فالصوفية آلية من آليات إلغاء العقل والإبعاد عن الدين، وجعل الناس مسلوبي العقل والإرادة وكأنهم قطعان ماشية، الأمر الذي كان يروق للسلاطين والمماليك، ويحرصون عليه لترويض المسلمين واستئناسهم.

ولا تقتصر خطورة بدع وخرافات المتصوفة على أنها مجرد انحرافات عقلية وإنما جل ضررها في ذيوعها وانتشارها حتى نخاع المجتمع وضميره وعقله، وتأثيرها في أسلوب المعاملات الحياتية للناس وتشكيل سلوكياتهم بعيدًا عن إسلامنا الحنيف بعد أن أصبحت الصوفية عقيدة جديدة تختلف تمامًا عن عقيدة الإسلام. وتحول الناس إلى مجرد قطعان غائبة عن حاضرها، يفعل بها كل مستبد ما يشاء وكأن الأمة هي العاهرة التي لا ترد يد لامس. وساعدت الأمية والجهل بالدين وانعدام التعليم – تقريبًا – بين الطبقات الشعبية التي تمثل السواد الأعظم من الأمة، ساعدت على

ترسيخ أفكار الصوفية في سلوكياتنا، فلم يفكر الناس خارج نطاق الدروشة والتسابيح وحلقات الذكر وأضرحة الأولياء وكرامات الشيوخ، بدءًا من الإعفاء من تكاليف الدين، وانتهاءً بإحياء الموتى، وانصرفوا عن الاهتمام بقضايا العقل والحرية والمساواة والعدالة والشورى ومناهضة الفقر والمرض والقهر.

تقول فرقة "الحبية"، من فرق الجبرية، من شرب كأس محبة الله عز وجل سقطت عنه الأركان والقيام بها. وتقول فرقة "الفكرية"، من الجبرية أيضًا، إن من ازداد علمًا سقط عنه بقدر ذلك من العبادة" (٣٢).

وتم توارث هذه الأضاليل والأكاذيب بين العامة سنين عديدة حتى أصبحت تراثًا شعبيًّا، ثم تراثًا دينيًّا، ثم أصبحت هي الدين نفسه الذي يُكَفَّر من يعارضه أو ينتقده. ولعمري إن هذه الموروثات وأشباهها لتمثل رمد عين التدين الصحيح والتي آن لنا أن نلتمس لها الطب والمداواة.

ذلك بعض الغث من التراث الذي يجب تمحيصه ورفضه، بعد أن خلعنا عليه قداسات مزيفة، وآن الأوان لانتهاك حرمة

هذا الميراث المزيف المضلِّل الذي أصبح دينًا جديدًا وعقيدة باطلة تختلف جذريًّا عن إسلامنا الحنيف.

وفي العصر الذي تتحقق فيه الرفعة والمنعة بالعلم والتكنولوجيا والبحث العلمي والتعليم، يرى المتصوفة، وهم مؤثرون بأفكارهم في قطاعات عريضة من المسلمين، يرون أن تحصيل العلوم يكون بانقطاع المرء عن الدنيا تمامًا، والاختلاء بالنفس في مكان قصي: زاوية أو خانقاه، ثم يؤدي فروض الصلاة فقط، ويصرف همه دون ذلك حتى أنه لا يقرأ القرآن، ويعطل عقله حتى عن التأمل والتفكر، وعليه فقط ترديد لفظ الجلالة: الله.. الله.. الله – على طريقة دراويش حلقات الذكر، وبعد ذلك تنفك له فجأة مغاليق المعارف والعلوم. أليس ذلك مما لا نزال نراه في حلقات الذكر والموالد؟ وذلك في عصر الكمبيوتر والإنترنت وغزو الفضاء. ففي كتابه إحياء علوم الدين، يرى أبو حامد الغزالي أن تحصيل العلوم يكون "بأن يقطع الإنسان همه عن الأهل والمال والولد والعلم، ويخلو بنفسه في زاوية، ويقتصر على الفرائض والرواتب، ولا يقرن همه بقراءة القرآن، ولا بالتأمل في نفسه، ولا يكتب حديثًا ولا غيره، ولا يزال

يقول: الله.. الله.. الله، إلى أن ينتهي إلى حال يترك تحريك اللسان ثم يمحي عن القلب صورة اللفظ" (٣٣).

وكيف تكون رياضة النفس حسبما يرى المتصوفة، تكون بالخلوة في مكان مظلم، وإن تعذر الظلام والوحشة، يخفي المرء رأسه في ثيابه وينتظر حتى يسمع نداء الحق ويشهد حضرة الربوبية!!، (قال أبو حامد الغزالي في كتابه الإحياء: ومقصود رياضة النفس هو تفريغ القلب وليس ذلك إلا بخلوة في مكان مظلم، فإن لم يكن مظلم فيلقي المرء رأسه في جبته أو يتدثر بكساء أو إزار. ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ويشاهد جلال حضرة الربوبية. وانظر إلى هذه الترتيبات والعجب كيف تصدر من فقيه عالم، ومن أين له أن الذي يسمعه نداء الحق وأن الذي يشاهده جلال الربوبية، وما يؤمنه أن يكون ما يجده من الوساوس والخيالات الفاسدة" (٣٤).

وفى حين أن العقل هو حجة الله تعالى على خلقه، يذكر الغزالي في كتابه الإحياء حديثًا موضوعًا مؤداه أن (أكثر أهل الجنة من البُله)، أي أن إغفال العقل هو الطريق إلى الجنة، وأن السلامة والهدى في البلاهة، والصلاح في

احتجاب العقل. وتأثرت العوام، في ظل الأمية والجهل، بالغلاة والجهلة مما جعل الانحرافات العقلية والدينية والسياسية هي المعتقدات الفاعلة في زمانهم والآن وكل آن. فغالب العامة جهلة، ترى منهم من يترك الفريضة ويزيد في النافلة. ولما كان تقدم المجتمع رهنا بما تقدمه الطبقة المتوسطة من كوادر متعلمة ومواهب إبداعية، فقد عجزت هذه الطبقة، طبقة عموم الناس، عن تقديم وإفراز مثل هذه الكوادر بعد أن غابت العقول قرونا وقرونا في ظلام وجهالة كان غثاء التراث يعمل عمله خلالها، فتم تسفيه العقل، وتشويه الدين، واعتناق ملة الصوفية، وطمس قيم العمل والعلم والتعلم. فبينما كان الغزالي ينصح الناس بتغطية رءوسهم في الجبة طلبًا للحقيقة كان الفرنجة "الكفرة" يلتمسونها في المختبرات، وفى حين طلب من الناس الجلوس في خلوة في مكان مظلم انتظارًا للوحي كان الآخرون في أوروبا ينشئون الجامعات الحديثة ويدرسون العلوم العقلية التي يحتقرها الصوفية، وانتهى الأمر بنا وبهم إلي ما نحن عليه الآن: أسياد وعبيد ولكن في شكل جديد.

" وأبو حامد الغزالي هو الذي دخل بالتصوف عصرًا جديدًا حين أسبغ عليه الشرعية الإسلامية، وقرب بينه وبين مذهب أهل الفقه، وهى خطوة جبارة لم يكن لها أن تتم إلا بشخصية الغزالي الذي تمتع في عصره بزعامة الفقهاء والمتكلمين مع تقدير الحكام والعوام. بيد أن ذلك كله لم يعصمه من ثورة الفقهاء عليه مع أنهم كانوا دونه علمًا وشهرة، وأفتوا بتكفيره وأحرقوا كتابه "إحياء علوم الدين" في مواضع شتى في البلاد الإسلامية" [٣٥].

(وبدأ موقف الغزالي من إنكاره للعقل طريقًا إلى المعرفة في حملته الضارية على الفلسفة، مقررًا أنه لا يقصد هدم مذاهبها وإظهار ما فيها من عجز وتناقض وتلبيس، وإنما يقصد بحملته إلى إثبات إفلاس العقل ليمهد نفوس الناس إلى الاتصال بالدين والترحيب بالتصوف، أي الرجوع إلى القلب الذي يدرك الحقائق الإلهية بالذوق والكشف بعد تصفية النفس بالعبادات والرياضات الصوفية، ويقرر بعد ذلك أن التصوف يلي الوحي الإلهي طريقًا إلى اكتشاف الحقيقة وأنه يفوق العقل الذي يتمسك به الفلاسفة مع قصوره عن إدراكهم" [٣٦].

ويقول وليب هير: (إن التجربة الشخصية للغزالـــي هـــي التي دعته إلى الاعتقاد بأن المذهب الصـــوفي فـــي الـــدين الإسلامي هو الوسيلة المجدية لمعرفة الحقيقة الإلهية رغم أن ذلك لم يمكن المؤمن من معرفة أي شيء عن الله أو الحقيقة الإلهية يزيد على ما هو متواجد بالفعل في القـــرآن الكـــريم، وهو بذلك حاول أن يضع التجربة الصوفية في داخل نطـــاق الشريعة الإسلامية" (٣٧).

وماذا قدم التصوف للإسلام، وهل اكتمل إسلام الصـــحابة والتابعين دون اعتناق التصوف؟ وهل تم دين الســـابقين دون كتب ابن عربي وكفريـــات أبـــى يزيـــد البســـطامي وابـــن الفارض؟. وإذا حـــذفنا مـــن كتـــب الصـــوفيين الخرافـــات والأباطيل التي يتنصل معاصروهم منها، لن يتبقى من كتبهم شيء، فكلها إفك وكفريات ما سئلوا عنهـــا فـــي أي عصـــر إلا قالوا إنها أكاذيب دسها عليهم آخرون. إذن لماذا يقدسون هذه الكتب ويعيدون طباعتها كاملة غير منقوصة بما في ذلك ما ادعوا أنها أكاذيب مدسوسة عليهم؟ وادعاء الـــدس لـــيس جديدًا على الصوفية، فكثيرًا ما يلجئون إليه لإغـــلاق بـــاب المناقشة حول أي موضوع يرون أن الحق قد جانبهم فيه.

وألَّف أبو حامد الغزالي كتابًا أسماه (المضنون بـــه علـــى غير أهله)، زعم فيه أن هناك أسرارًا إسلامية جُعلت للخاصة دون العامة، وهذه الشرائع والأسرار مضنون بها على أمـــة الإسلام كافة، سوى الصوفيين، فهو يرى أن في الدين طبقية وتفاضل أقوام على أقوام، الأمر الذي أغرى الصوفيين بزعم اختصاصهم بالتوصل إلى حقائق أخرى، والحصـــول علـــى العلم اللدني بالكشف والإلقاء في الروع ووحيًا مباشرة من الله تعالى. ولم يقل لنا الصوفيون ما هو هذا العلم اللدني الـــذي حصلوا عليه بالكشف، وما هي الحقائق التي توصلوا إليهـــا دون باقي خلق الله، ولماذا لم يسجلوا في كتبهم هذه الحقـــائق التي اختصهم بها الله مثلما ســـجلوا فـــي كتـــبهم الأكاذيـــب والأضاليل؟ وإذا كان ما أتاهم الشيطان من كفريات ظنوا أنها من الدين تتمة للملة والعقيدة، فكيف يستقيم ذلك مع كلام الله تعالى الذي قال في محكم آياته: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُـــمْ دِيـــنَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا** ﴾، هكذا في وضوح وحسم، فالدين قد اكتمل دون خـــزعبلات الصـــوفية وبدعهم، والدين بهذه الصورة هو ما رضيه الله تعالى لعباده من دين، هكذا دون زيادة أو نقصان، وما زعموه إضافة إلى

الدين إنما هو محض اختلاق وضلال، إذ لا يضاف إليه إلا باطل، فليس بعد الحق إلا الباطل، وليس بعد الهدى إلا الضلال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك). ويقول الإمام مالك: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمدًا صلى الله عليه وسلم خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا** ﴾. صدق الله العظيم.

وفي محاولة لتبرئة ساحة الصوفيين ونفي مغايرة ظاهرهم لباطنهم، يجادلك من يقول محذرًا بألا تنخدع بأعمال الناس وحدها فتحكم عليهم بمقتضى ظاهر عملهم؟ فالنيات لا يعلمها إلا الله، هكذا يداورون. نعم النيات يعلمها الله تعالى. ولكن لا يمكن تجاهل أن اقتراف الذنب يدين مرتكبه، وأن المذنب يستحق الإدانة مهما قيل إن النيات هي المحك. أيٌّ نيات تلك وقد سبق من المذنب الفعل والإثم؟ ولا يمكن إغفال أن الصوفي مزيف الدين، مذنب، يلعنه الله ويتوعده بالعذاب مهما قيل إن الأمر ليس لك فنية الصوفي لا يعلمها إلا الله، هذا سخف. صحيح أن النيات هي المحك إن لم يكن

هنالك فعل وسلوك يدل ويشهد، فإن أتى المرء ما يؤاخذ عليه، وجبت إدانته ولا يصح القول بغير ذلك إذ أن النية والسريرة لا يعلمها سوى الله.

والإيمان صنو العمل، فالعمل – أي السلوك – هو الذي يكشف درجة ما عليه المرء من الإيمان، وذكر في القرآن الكريم الإيمان مقترنًا بالعمل في ٦٢ موضعًا. لذا لا يصح على أي نحو من الأنحاء أن نفصم بين سلوك الإنسان وإيمانه فالعلاقة بينهما عضوية. أي لا يجوز أن نصف بالإسلام المتصوفة الذين لا يصلون ولا يصومون وانفلتوا من تكاليف الدين بدعوى أنهم متصلون بالله والسماء، أو أنهم اتحدوا في الذات الإلهية، فهذا فحش عقلي ومحض هراء وكفر، فتلك التكاليف لم تُرفع عن النبي الكريم ذاته.

تقول فرقة التاركية، من فرق المرجئة، (ليس لله عز وجل على خلقه فريضة سوى الإيمان به، فمن آمن به وعرفه، فليفعل ما شاء، وتقول فرقة الراجية، وهى أيضًا من فرق المرجئة: (لا نسمي الطائع طائعاً ولا العاصي عاصيًا لأنا لا ندري ما له عند الله" (٣٨).

يقول جولد تسيهر: "والأذكار الصوفية لا تزال حتى اليوم هي الهيكل الأساسي في بناء الصوفية، ويرفعون من شأنها إلى أن تصل إلي مرتبة الفرائض الحتمية التي قد تتضاءل دونها الفرائض. وتصبح الفرائض بالنسبة لها واجبًا ثانويًّا سيان أداؤه أو إغفاله" (٣٩).

ولدينا نحن المصريين فائض كبير ومخزون رائع من القداسات ومشاعر التقديس حتى أننا نضفيها على أي شيء وكل شيء، وإن كانت الحيوانات التي قدسها أجدادنا في مصر الفرعونية، فقد قدسوا البقر والقطط والكلاب بل حتى الخنافس، وذلك انطلاقًا من تقديس وتأليه الفرعون نفسه. وتعدى ذلك في زماننا إلى تقديس الهُبَّل والمجاذيب ظنًّا أنهم من أولياء الله، ومستجابو الدعوة. ويبدو أن سرعة وسهولة المبادرة بإضفاء القدسية على الآخر، إنما هي آلية من آليات مدافعة سوء ظن الآخر بنا، واتقاء شره، وإبداء المسالمة. تلك النفسية التي اعتادت المهادنة من "أول نظرة "والاعتراف من أول صفعة"، وذلك من باب الدفاع عن النفس العاجزة عن المواجهة، أو الدخول في صراع من أجل انتزاع الحقوق المسلوبة، كما أنها آلية لإثبات الدونية وقبول المذلة من باب

اتقاء المزيد من القهر. وتتفاوت درجة القداسة المضفاة على الآخر الذي قد يكون شريرًا قويًّا ناهبًا، فهي في أوضح صورها عبادة الفرعون، ثم تتدرج مع كُهانه وجباة الضرائب، وتصبح في العصور المملوكية هي الخوف من المماليك الذين كانوا في نفس الوقت جباة الضرائب وفارضيها، وكذلك البدو أصحاب الخيل والسيف ممن شاركوا أيضًا في نهب الفلاحين وسرقتهم. اسمع إلى تراثنا الشعبي إذ تقول أمثاله: (اللي اتلسع من الشوربة، ينفخ في الزبادي)، فهي دعوة إلى توخي اتقاء الشر مما لا يجب أن يُتَّقى منه الشر، وإنما من باب الحيطة على ضوء تجارب سابقة ثبت منها انعدام القدرة على المواجهة. لذا لم يكن غريبًا أن يتقبل المسلم تقديس أجناس وأعراق وسلالات وجماعات أخرى كالأشراف، والبكرية، والأولياء، ومشايخ الطرق الصوفية، وموتى الأضرحة الذين يلتمس منهم المغفلون الرحمة والشفاء والتوسعة في الرزق.

(ويرى مايكل ونتر أن الدولة العثمانية حاولت تشجيع تركيبات أو تكوينات أو عناصر محلية غير مملوكية لإحداث نوع من التوازن الداخلي مع المماليك. لهذا فهو يرى أن

نقابة الأشراف صناعة عثمانية، رغم وجود الفكرة على نحو ما منذ العصر العباسي) [٤٠].

والناس مولعون بإضفاء القداسات على أنفسهم وأشيائهم، فمنهم من يزعم انتسابه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ويدَّعون أنهم من الأشراف ويلبسون العمائم الخضر تمييزًا لهم عن الآخرين. ومن فاتهم الزعم بالانتساب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قالوا بانتسابهم إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وسموا أنفسهم البكرية، وكان نقيبهم يُسمَّى شيخ السجادة. وانظر ما هي شواغل هؤلاء البكرية، هل هي شواغل تتعلق بالجهاد في سبيل الله والدين؟ كلا، بل هي (إدارة شئون الأوقاف والإشراف على بعض المزارات المقدسة والأضرحة، والحصول على المنح الحكومية ومعاشات التقاعد والرواتب" [٤١]، أي أنها مسألة منفعة وارتزاق باسم الدين. وحسبك أن تفتش عن الدينار حتى تتكشف لك بواعث الغايات. ومسألة زعم الانتساب إلى أصول شريفة مسألة تثير الدهشة، كيف يمكن تحري وتتبع الأنساب من القرن الحادي والعشرين إلى السادس الميلادي، حتى يمكن الجزم والاستيثاق بأن هذا "بكري" أو هذا من

سلالة النبي صلى الله عليه وسلم، في أوقات لم يكن من الميسور، بل من المستحيل، إثبات تواصل سلسلة الأنساب إلى الأصول. فمن منا يمكنه الآن استخراج شهادة ميلاد جده أو جد جده ممن لا يبعد أكثر من أربعة أو خمسة أجيال؟ "وكان اصطلاح شيخ السجادة ينطبق على قادة العنانية والخضرية والوفائية الذين يرجعون أنفسهم إلى عمر بن الخطاب والزبير بن العوام وعلي بن أبى طالب على التوالي – رضي الله عنهم أجمعين. وهذه المجموعات من الأشراف – شأنهم شأن المنحدرين من سلالة أبى بكر رضي الله عنه، قد حولوا أنفسهم من جماعات أسرية عائلية إلى جمعيات صوفية" [٤٢]. واشترك شيوخ السجاجيد في تأسيس الطرق الصوفية والحصول سنويًّا على جزء من إيرادات الأضرحة والمخصصات التي تدفعها الحكومة لها. وانظر إلى اللائحة الداخلية للطرق الصوفية إذ تقول: (يقوم شيخ الخدمة بجمع النذور مع إبلاغ الموظفين الذين لهم الحق في الحصول على نصيب من النذور ومنح كل ذي حق حقه في نهاية كل شهر) [٤٣].

ويصف علماء الحملة الفرنسية ظاهرة تقديس المصريين للأولياء في العصر المملوكي والعثماني، فيقولون: (ويقدس المسلمون عديدًا من الأولياء الموتى، وهم لا يعظمونهم إلاَّ لكي ينالوا منهم الصحة لأنفسهم، أو الخصوبة لزوجاتهم العقيمات. كما يرون في أوليائهم القدرة على إبطال مفعول الحسد والسحر المؤذي" (٤٤). وذلك في رأينا إنما هو عين الشرك المبين.

ولقد اختلطت الخرافات بالدين، وأصبحت الأباطيل والأوهام أمورا مقدسة بل اعتبرت من الدين نفسه. ولا تثريب على غير المسلمين إذا تجنبوا الإسلام إذ يرونْ أضاليل الصوفية وخرافات الأولياء على أنها أمور مقدسة من صميم الإسلام. وقد انتقدوا هذه الأضاليل بعقول واعية، ورأوا فيها ما يبعث على الإشفاق والضحك. قال علماء الحملة الفرنسية، وهم شهود عيان: "لقد صور المصريون في عصورهم القديمة الإله في أشكال بالغة الغرابة، وكرس المصريون المحدثون، شأنهم في ذلك شأن القدامى، أخطاء ومعتقدات بعيدة عن العقل ربما لم يعد من الممكن اعتقادها مع هذا المدى الذي بلغه عقل الإنسان عما كان عليه في تلك

الأزمان الضاربة في القـدم. وفـي هـذا الصـدد لا يقـل المصريون المحدثون غرابة عن أسلافهم وإن كانوا أقل منهم عبقرية ومهارة، فهم يعبـدون أشـياء يمجهـا العقـل مـن الأضرحة والأولياء، ويلقى البله في حياتهم الاحترام والإكبار باعتبارهم أولياء وقديسين. ويُرى هؤلاء على الـدوام وهـم يسيرون عراة كما ولدتهم أمهاتهم، ولكن التقـديس، أو قـل العمى العام يكون بالنسبة لهم بمثابة الرداء. ويُـدفن هـؤلاء الأشخاص بعد موتهم في احتفال كبير، وتصـبح مقـابرهم للناس أماكن مليئة بالمعجزات. وفي الأرياف والأحياء البعيدة عن وسط المدن يوجد الكثير من هذه الأضرحة التي تـدين بوجودها لهبات المسلمين المتحمسين. وثمة عـادة خاصـة بمصر لا تشاركها فيها – فيما يبدو – بقية الدول الإسلامية، تلك هي عادة إقامة الأعياد للأولياء، حيث لكل قرية وحـي من مدن مصر الكبرى ولي يحتفل الشعب بيوم مولده" (٤٥).

وفي حين كان القرن الرابع قبل الميلاد هو عصر بـزوغ التفكير الحر المنظم، وغياب الفكر البدائي عند الإغريق، كان القرن الرابع الهجري لنا نحن المسلمين بمثابة بداية غـروب حرية العقل والشروع في اعتقاله، وانتشار الصوفية، وذيوع

التمذهب، وترسيخ الاستبداد، واعتماد البطش آلية للتعامل مع الخلق. يقول هـ. ج. ويلز: (ونجد في القرن الرابع ق. م قوما – يقصد الإغريق – ذوي تفكير عصري أو يكاد، يقصد تفكيرا يشابه التفكير في عصرنا الحالي. لقد ولَّت طرائق الفكر البدائي الشبيهة بطرائق الأطفال والأحلام، وحل محلها تناول مشكلات الحياة بطريقة منظمة، دون اللجوء إلى الرمزية والتخيلات السحرية البشعة الدائرة حول الآلهة البشعة والوحوش المعبودة، مثل أفكار وخرافات المتصوفة حول أقطابهم وأوليائهم المعبودين، كما تلغى جميع المحظورات والمخاوف والقيود، مثل مخاوف العامة من غضب الولي والشيخ والمهبول والمجذوب، التي ظلت تكبل حتى آنذاك تفكير الإنسان، لقد ابتدأ التفكير الحر المضبوط المنظم" [٤٦]. أي ابتدأ عندهم – الإغريق – التفكير الحر المضبوط في القرن الرابع قبل الميلاد، ولكن العقل المسلم لا يزال معتقلا يرسف في أصفاده منذ ألف سنة، فهل من محرر؟

وفى القرن السابع عشر ترسخ في أوربا الاعتقاد بأن العقل وحده هو وسيلة اكتشاف الحقائق حول طبيعة الإنسان

والكون، وظهرت في القرن نفسه حركة التنور، وهى حركة أدبية فلسفية تناهض الخرافات والجهل وتدعو إلى تمحيص المعارف التقليدية والأفكار المتعارفة، وتحض على انتقاد الموروث وتمحيصه في ضوء العقل والعلم، ونبذ الخرافات والأباطيل. وفي الوقت الذي كان فيه مفكرو الغرب يكتبون الكتب التي تحدث تغييرات أساسية في العقول والنفوس، مثل كتاب (مقال في المنهج) الذي ألفه رينيه ديكارت سنة ١٦٣٧ والذي يشكك في التنجيم ويوجب على الباحث التحرر من كل سلطة سوى سلطة عقله، ويطلب منه رفض الأفكار السابقة التي لم يقم عليها دليل عقلي، كان الصوفية يزعمون المشي على الماء والطيران في الهواء والتواجد في أكثر من مكان في وقت واحد. وأدت التفاسير النقدية للكتب المقدسة إلى إضعاف هيبة العقيدة الدينية الرسمية في إنجلترا، ولم يجرؤ في عالمنا الإسلامي أحد من الفقهاء على الرد على الصوفية سوى عدد قليل مثل ابن تيمية في القرن الثامن الهجري، وبرهان الدين البقاعي في القرن التاسع الهجري.

وامتدت حركة التنور على الصعيد السياسي من جون لوك (١٦٣٢ – ١٧٠٤) إلى الثورة الفرنسية (١٧٨٩)، وآمن

زعماء حركة التنور – بضرورة الإصلاح والأخذ بروح البحث العلمي، والتسليم بمبدأ نيوتن القائل بخضوع العالم لقوانين يمكن اكتشافها، والاعتقاد بوجوب تعميم المعرفة بحيث يتاح للناس كافة الانتفاع بنعمة العقل، ومحاربة أضاليل القدماء التي أدت إلى الخرافات وأصبحت ذريعة للاضطهاد. واستمر تأثير حركة التنور في أوروبا، التي بدأت في القرن السابع عشر، إلى القرن الثامن عشر بفعل الحركات العلمية والعقلية وترسيخ روح البحث العلمي والعقلي وبفضل الانتقاد الجذري للمؤسسات والقيم والممارسات السائدة، وتم ذلك كله بفضل الإيمان الراسخ بالعقل. وفى ذلك الوقت، القرن الثامن عشر، كان الدراويش والصوفيون في بلاد الإسلام هم المسيطرين على ضمير وعقل الأمة، بل قُل ما تبقى من عقل الأمة. وبينما كانوا يباهون بقدرة أبى يزيد البسطامي الصوفي الشهير الذي يدَّعي استطاعته إطفاء جهنم بثوبه المرقّع، كان بولتون وواط يخترعان المحرك البخاري. وبينما كان الفلاح المصري لا يجد ما يأكله أو يلبسه بسبب الفقر والكساد والقهر، كان ثمة ٧٠ بنكًا في لندن سنة ١٨٠٠م، و٤٠٠ بنكًا ريفيًا تصدر

سنداتها الخاصة، وقبل ذلك تأسست البورصة سنة ١٧٧٣. وبينما كانت الحكومات في الغرب ترعى الصناعة والعلماء والجامعات والمفكرين، كان الخلفاء العثمانيون يرعون الطرق الصوفية ومن أهمها الطريقة البكطاشية والطريقة المولوية. وظهرت في بلادنا في زمن المماليك الطريقة الكيلانية والرفاعية والنقشبندية والشاذلية.... وغيرها وفي الوقت الذي اكتشف فيه نيوتن قوانين الحركة، وبدأت بعده الثورة الفكرية التي أطلق عليها (الجمهورية)، فقامت الجمهورية الفرنسية ١٧٨٩، واستقل الأمريكان عن الإنجليز وأنشئوا حكومتهم القومية سنة ١٧٨٣، كان الصوفيون في بلادنا مشغولين بشروح التصوف الشائع، وتكوين الطرق الصوفية، أما العلوم والسياسة والدين الصحيح فوقعت خارج دائرة اهتمامات الصوفية والسلاطين. وعندما كان الصوفيون يفاخرون بأن ياقوت العرشي (زوج ابنة المرسي أبي العباس) كان يرى العرش من فوق سبع سماوات إذ كان دائم الحملقة في السماء، في هذا الوقت كان فان لوفنهوك يصقل العدسات ويصنع الميكروسكوب (المجهر)، وعندما تفاخر أحدهم بأنه يعرف أزقة السماء !!؟ كما يعرف الناس أزقة

الأرض، كان العلماء الأوروبيون جاليلو جاليلي، وكبلر، وبوهر يدرسون الأفلاك والأجرام السماوية بالتلسكوبات المقرِّبة. ولما تباهى إبراهيم الدسوقي بأنه يستطيع غلق أبواب جهنم بمرقعته (ثوبه البالي)، كان أعداؤنا من كل ملة وجنس يسحقوننا سحقًا. ومازال زاعمو المشي على الماء والطيران في الهواء يعيشون بين ظهرانينا ويقيمون حلقات الذكر والسماع، ولم نسمع عن أحد منهم وقد تطوع لتهريب الأسلحة إلى أبنائنا في فلسطين عن طريق شاطئ غزة، إذ يسهل عليهم المشي فوق الماء دون أن تدركهم دوريات المراقبة الإسرائيلية، أو أن ينقلوا الجرحى الفلسطينيين من الأطفال والنساء عن طريق الطيران بهم في الهواء على طريقة الإسعاف الطائر... لم يقل لنا أحدهم أين هم الآن بقدراتهم الهائلة التي يزعمونها زورًا وبهتانا، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

(وكانت الروايات قد ذاعت بأن السيد أحمد البدوي قادر على إحضار الأسرى من بلاد الفرنجة بإشارة يسيرة منه وهو فوق السطح في طنطا، حتى ليطير الأسير من عكا، وبعد ذلك يكون في طنطا يرسف في قيوده) [٤٧] الأمر الذي

لا يستطيعه الكوماندوز الأمريكان ولو استعانوا بطائرات الأباتشي وأسلحة الليزر. لذا يردد أتباع البدوي في تراتيلهم: الله.. الله.. يابدوى جاب اليُسرى – أي الأسرى – وعلى النقيض من شجاعة البدوي وبراعته هذه في اقتناص الأسرى من على السطوح، كان خليفته المعروف باسم "الأبيض" وهو الشيخ محمد سالم الدمشقي، كان جباناً، إذ حاول التهرب من الخروج مع السلطان الغوري في حربه مع العثمانيين سنة ١٥١٦، لولا أن السلطان أرغمه على الخروج مع الجيش. وأخذ السلطان الغوري معه الصوفيين بطبولهم ومزاميرهم وأعلامهم، تبركًا وتيمنًا بهم، إذ كان يظن أن دعاءهم مجاب! وعندما اشتدت المعركة وحمي وطيسها قال لهم: (ادعوا لي الله بالنصر فهذا وقت دعائكم)، وفعلا زعق الصوفيون ملء حناجرهم بالدعاء، وهُزِم السلطان الغوري هزيمة نكراء وأبيد عسكره وأصيب بالفالج، بل لم يُعثر على جثته بعد أن ضاعت تحت سنابك الخيل، إنها بركات الصوفية. وكان خليفة إبراهيم الدسوقي بصحبة خليفة أحمد البدوي في المعركة حيث ماتا شر ميتة، ولم يجد دعاؤهما نفعًا في مواجهة بنادق العثمانيين التي لم يكن يعرفها المصريون،

وربما نسيا – أي الخليفتان المصروعان – أن يحضرا معهما في المعركة قواهما الخارقة وإمكاناتهما السحرية. ويصف لنا هذه الواقعة شاهد عيان وهو ابن زنبل الرمال الذي قال في كتابه آخرة المماليك: "وكان مع الغوري خلفاء المشايخ، مثل خليفة سيدي أحمد البدوي، وسيدي عبد القادر الجيلاني، وسيدي إبراهيم الدسوقي وأمثالهم، فلما وقعت الكسرة، أي الهزيمة، على الغوري بقي المشايخ المذكورون بحلب فلما سمعوا بأن السلطان سليم قادم إلى حلب خافوا من سطوته، فأخذوا في الذهاب نحو دمشق. ولما رآهم على بعد مع الرايات والأعلام – من أدوات النصب التي لم تغن عنهم شيئًا – قال: ما هؤلاء؟ قالوا له: هؤلاء خلفاء المشايخ كانوا جاءوا مع الغوري، فلما كُسر خرجوا يريدون الذهاب إلى مصر، فأمر بإحضارهم. فلما مثلوا بين يديه أمر بقطع رقابهم واحدًا بعد واحد، ولم يرحم منهم كبيرًا لكبره، ولا صغيرًا لصغره، فقتلهم عن آخرهم، وكانوا يزيدون على ألف رجل" (٤٨).

ولا يوجد عاقل واحد صحيح الإيمان يصدق الكرامات المزعومة لهؤلاء الأولياء والشيوخ، لكن العامة تصدق

وتعتقد اعتقادًا راسخًا في هذه الخرافات التي تؤثر في سلوكياتهم. ولم يقل لنا أحد لماذا لا تحدث هذه الكرامات في أيامنا هذه وتتجلى أمام أعين المثقفين والمستنيرين من غير المسترهبين بأباطيل الصوفية، أم أنها كانت خاصة بالجهلة والمجاذيب في القرون الخوالي ؟

بعدما اكتشف الملاح البرتغالي فاسكو دي جاما الطريق البحري بين الشرق والغرب عن طريق رأس الرجاء الصالح، تمكن البرتغاليون في سنة ١٤٩٨ من السيطرة على بحر الهند، ومنعوا العرب من الوصول إلى الهند بحرًا، الأمر الذي قضى على تجارتهم، وأصاب اقتصادهم بالكساد، وعطل المد الإسلامي في هذه المناطق، بل إن البرتغاليين كانوا ينهبون قوافل الحج المتوجهة من الهند إلى مكة (ولم يتنبه أحد إلى خطورة ما وقع على الساحل الجنوبي للهند – أي السيطرة على سواحل جنوب الهند وقطع الطريق على تجارة المسلمين – فقد كان الجميع، أي المسلمون وفقهاؤهم، يطوفون في عالمهم الروحاني !! حتى يتمكنوا من الوصول إلى اجتهادات في أبحاث معقدة عن وحدة الوجود (فلسفة الصوفية)!، ولهذا ظلوا لا يدرون شيئًا عن هذه الواقعة التي

حدثت لبلدهم، فقد طورت الأمم الغربيــة قواتهــا البحريــة وسيطرت على سواحل البلاد وهم أمامها بلا حول أو قوة،.. وأول من شعر بأهمية القوة البحرية هو حيدر على (١٧٢٢ - ١٧٨٢) والد السلطان تيبو، فحاول إقامة مصــنع للســفن الحربية في جزيرة (مالديف)، إلا أن الوقت كان قــد ولَّــى، وسبق السيف العذل، فلم يحقق أي نجاح من مشروعه" [٤٩].

ولم يقل لنا أحد من الصوفيين أو المــدافعين عــنهم إنــه مادامت الحقائق تتجلى والمستور ينكشــف للصــوفيين دون أجهزة علمية أو معامل أو علماء وبــلا دراســة أو احتيــاج لمدارس أو جامعات، مادام الأمر كذلك، فلماذا لم يكتشف لنا أحدهم خلال الألف سنة الماضية قــوانين نيــوتن للحركــة والجاذبية، أو قوانين بويل للغازات، أو قوانين كبلر الفلكيــة، أو الكهرباء، أو أشعة إكس. .. بل لم يقل لنا أحد منهم مــاذا كشفوه من الحقائق التي ادعوا كشفها بالكشف والتذوق منــذ ابتلي بهم العقل المسلم في القرن الثالث الهجري وإلى الآن.

وإذ ثبت لنا أنه لم ينكشف للصوفية أيّ من قوانين الكون والطبيعة والأشياء، أي تلك القوانين التي قامت عليها المدنية الحديثة. فينبغي إذن أن تكون كشــوفهم غيبيــة، وروحيــة،

وميتافيزيقية. أي بان لهم من عوالم الغيب الحقائق التي تقربهم من الله والملائكة والعرش والسماوات العلى. إذن هم ارتقوا إلى عوالم لم يرق إليها أحد من الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين، بل لم يرق إليها النبي صلى الله عليه وسلم نفسه، إذ لم يدَّعِ – حاشاه – أنه يعرف أزقة السماء كما يعرف الناس أزقة الأرض، ولم يدع رؤية عرش الله تعالى وهى أمور ادَّعاها أصاغر الصوفيين ومجاذيبهم. ومادام الأمر كذلك، وبلغت مراقيهم الأعالي، فوجب لهم ما لم يجب لنبي العالمين عليه الصلاة والسلام، إذ أعفوا أنفسهم من العبادات، الأمر الذي لم يجز للنبي نفسه إذ ظل يصلي ويصوم ويؤدى كل ما أمره به الله من عبادات حتى توفاه.

ومادامت كشوف الصوفية خاصة بالذات الإلهية، فليقل لنا أحد كيف يكون ذلك وقد أخبر الله تعالى نبيه بأن الروح، وهي من مخلوقات الله تعالى، من أمره وحده، **﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾**، أي لا أحد سواه يعلم عنها شيئاً، فما بالكم بالذات الإلهية، وباقي الأمور الغيبية التي لم يفصح الله عنها، كوصف العرش وما

شابه ذلك. تُرى من هم أولى بقصد الحديث الشريف الـــذي يقول: (أنا فرطكم على الحوض، وليختلجن رجـــال دونـــي، فأقول يارب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك). تُرى أكان الحبيب المصطفى صلى الله عليه وســلم يقصـــد بدعة التصوف والصوفية إذ قـــال: (أوصـــيكم بتقـــوى الله، والسمع والطاعة وإن عبدًا حبشيًّا، فإنه مـــن يعـــيش بعـــدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشـــدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليهـــا بالنواجـــذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعـــة ضلالة).

التصوف

١ – عبد الوهاب الشعراني/ الطبقات الكبرى.

٢ – المرجع السابق، د. السيد محمد أحمد عطا/ إقليم الغربية في عصر الأيوبيين والمماليك.

٣ – عبد الوهاب الشعراني/ لطائف المنن.

٤ – المرجع السابق.

٥ – طبقات الشرنوبي/ مخطوط بجامعة القاهرة – الدكتور أحمد صبحي منصور/ العقائد الدينية.

٦ – الكامل لابن الأثير جـ ٨، الشذرات جزء ٢، ص ٢٩٣ ، مختصر الفرق ص ١٦٠.

٧ – الكامل لابن الأثير

٨ – برهان الدين البقاعي/ تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي – تحقيق د. عبد الرحمن الوكيل.

٨ – المرجع السابق.

١٠ – ابن عجيبة ص٥ جـ١ طبعة ١٣٣١ هـ.

١١ – ابن تيمية – كتاب مجموعة الرسائل والمسائل جزء ١ ص ١٤٢.
١٢ – ابن الجوزي – تلبيس إبليس.
١٣ – المرجع السابق.
١٤ – المرجع السابق.
١٥ – د. علي سامي النشار/ نشأة الفكر الفلسفي الإسلامي – جزء ١ – الطبعة الرابعة.
١٦ – هـ. ج. ويلز – موجز تاريخ العالم.
١٧ – ابن الجوزي – تلبيس إبليس.
١٨ – حسن عبد العال – التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري.
١٩ – جون ستيورات مل – الحرية.
٢٠ – ابن زنبل الرمال/ آخرة المماليك.
٢١ – الشعراني/ قواعد الصوفية ص ١٣١.
٢٢ – عبد الوهاب الشعراني/ لطائف المنن.
٢٣ – حافظ عثمان/ الإسلام والصراعات الدينية (بتصرف)
٢٤ – المرجع السابق.
٢٥ – جولد تسيهر – العقيدة والشريعة في الإسلام.

٢٦ – عبد الكريم الخطيب – التصوف والمتصوفة.
٢٧ – دولت عبد الله – معاهد تزكية النفوس.
٢٨ – ابن الجوزي – تلبيس إبليس.
٢٩ – عبد الوهاب الشعراني/ الطبقات الكبرى.
٣٠ – عبد الوهاب الشعراني/ لطائف المنن.
٣١ – د. سعيد عاشور/ كتاب السيد أحمد البدوي.
٣٢ – ابن الجوزى/ تلبيس إبليس،
٣٣ – المرجع السابق.
٣٤ – المرجع السابق.
٣٥ – د. أحمد صبحي منصور – العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف.
٣٦ – د. توفيق الطويل/ في تراثنا العربي الإسلامي.
٣٧ – وليب هير/ الأصولية الإسلامية في العصر الحديث
٣٨ – ابن الجوزي/ تلبيس إبليس.
٣٩ – جولد تسيهر – العقيدة والشريعة في الإسلام
٤٠ – مايكل ونتر – المجتمع المصري تحت الحكم العثماني – مقدمة بقلم د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ.
٤١ – فريد دي يونج – تاريخ الطرق الصوفية في مصر

في القرن التاسع عشر.
٤٢ – المرجع السابق.
٤٣ – المرجع السابق – اللائحة الداخلية لعام ١٩٠٥ – القسم الأول – المادة ٣.
٤٤ – علماء الحملة الفرنسية – وصف مصر – الجزء الأول.
٤٥ – المرجع السابق.
٤٦ – هـ. ج. ويلز – موجز تاريخ العالم.
٤٧ – الشعراني – الطبقات الكبرى، هاملتون جب – مختصر تاريخ العالم الإسلامي.
٤٨ – ابن زنبل الرمال – آخرة المماليك.
٤٩ – وحيد الدين خان – واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام.

الفصل الأول

كلام عن السلطة

- أكذوبة أن الشعوب تصنع تاريخها.
- الخليفة المسلم يضن بماله على الجيش، في حين يبيع الإمبراطور الروماني ملابس زوجته للإنفاق على جيشه.
- القسم بعبقرية الإمبراطور شرط لإبرام العقود.
- جنكيز خان يفتك بخمسين مليونا من الضحايا.

كلام عن السلطة

أكذوبة أن الشعوب وحدها تصنع تاريخها:

ليس صحيحًا أن الشعوب تحتشد بنفسها دون قائد يقودها ويوجه مسيرتها، فهذا لم يحدث قط. إذ لابد من وجود من ينظم صفوفها، ويحدد لها اتجاه المسيرة، ويستنهض الهمم ويحشد الطاقات. وتاريخ الأمم يصنعه الزعماء والأبطال. وهو تاريخ يتمثل في حركة صعود وهبوط تكون رهنًا بوجود القائد أو غيابه، فالأمم باقية على أية حال. ولكن ما يفسر حدوث الثورات والانتفاضات والصراعات والانتصارات، هو ظهور الزعيم القائد، وما يفسر هوان الأمم وانكسارها هو غياب ذلك الزعيم القادر الذي يأخذ بيدها بعد أن يكسر يد وعنق المستبد، سواء أكان دخيلا مستعمرًا يجثم على أنفاس الأمة، أو كان أحد أبنائها المارقين الذي استبد بها استنادًا إلى شرعية زائفة. وما من شك في أن الشعوب هي التي تبني وتبادر بالأعمال وحمل المشقة والتبعات، ولكن لابد من تفعيل قوى هذه الشعوب بقائد حاذق، بدونه لا فعالية لهذه الشعوب.

والعلاقة بين دوري الزعيم والأمة لا محل فيها لتفاضل دور على الآخر، وإنما العلاقة بين الدورين علاقة عضوية. فها هي دولة الصهاينة التي لم يكن لها أصلا شعب محدد الهوية ذو ثقافة موحدة وعرق واحد. بل تجمع اليهود من بلدان شتى، ويتحدثون لغات مختلفة، وثقافاتهم متباينة، ولا يجمع هذا الشتات سوى الانتماء إلى دين، دين محرَّف عبث به حاخامات اليهود بأصوله فأصبح زيفًا وبهتانًا. ثم توفر لهذه الشعوب الشتات زعماء وقادة فعَّلوا أدوار هذه الأمة المخلَّطة، وأصبحوا الآن دولة قوية تسحق أعداءها بالأحذية.

وإذ ثبت لنا بما لا يدع مجالا للشك أن تاريخ الأمم من صنع الزعماء والقادة، تبرز الضرورة القصوى لحسن اختيار من يتولى قيادة الأمة من الحكام، إذ إن حسن اختيار الحاكم هو الطريق الوحيد لصلاح أحوال البلاد والعباد الذي يتحدد به مصير الأمة، إما إلى رفعة، وإما إلى بوار. الأمر الذي يصبح معه هذا الاختيار هدفًا يتعين على الأمة كافة أن تحسن تحديده وإن بذلت في سبيله الدم والأرواح، ولا يجوز بأي حال أن تنصرف همة الأمة بعيدًا عن بلوغ هذا الهدف بدعوى طاعة أولى الأمر، أو قدسية الملك أو أبوة السلطان،

أو عزة شيخ القبيلة، أو التماس السلامة وطلب الأمن والأمان وحقن الدماء، أو تجنب فساد أحوال العباد بمناهضة ولي الأمر وإن فسق وظلم. ويجب أن يعلم الناس أن من الشرف وعلو الهمة التصدي لمن يسلب الأمة إرادتها أو ينتهك قوانينها، أو يزعم العلو عليها، أو يتلاعب بحقوق الناس تسترا وراء المصالح العليا، أو دعاوى صوت المعركة الذي لا ينبغي أن يعلو عليه شيء، أو يصادم إرادة الجماهير بدعوى اعتبارات الموازين الدولية والسياسية العليا، وكلها أمور تتطلب وعي الشعب واستنارته لكشف بطلانها، وصدق عزيمة على النضال لنيل حقوقه. يقول أفلاطون للناس: "إن معظم الأدواء الاجتماعية والسياسية التي منها تقاسون إنما هي أمور يسهل عليكم التصرف فيها، لو أنكم أوتيتم الإرادة والشجاعة اللازمتين لتغييرها. فأنتم تستطيعون أن تعيشوا بطريقة أخرى أكثر حكمة إن آثرتم أن تقتلوا الأمر تفكيرًا وبحثًا، وتكتشفوا بالدراسة كنهه، فأنتم لا تشعرون بما تملكون من قوة" (١).

وليس يخفى أهمية الدور الذي يضطلع به الملوك، على اعتبار أنه فعلٌ تستجيب له الأمة في صورة رد فعل، وقد

قال بهذا كثيرون من مفكري فجر النهضة العربية الحديثة أمثال رفاعة رافع الطهطاوي، وعبد الرحمن الكواكبي، ومحمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، وخير الدين التونسي، وأديب إسحاق، غير أن جهودهم لم تثمر الثمار المرجوة وذلك فيما نرى بسبب تضييق المستبدين على محاولات التنوير والتوعية التي كانت تظهر من حين لآخر، وبسبب الأمية التي حالت دون انتفاع الأمة بآراء هؤلاء المفكرين، فإن أمية الشعوب هي الجدار الواقي الذي يحمى المستبد، إذ تبطل عقول الناس، وتمنع فعالية جهود التنوير التي يحاول بذلها المثقفون الأشراف.

يقول خير الدين التونسي (١٨٢٥ – ١٨٨٩ م): "إن سعادة الممالك وشقاوتها في أمورها الدنيوية إنما تكون بمقدار ما تيسر لملوكها من العلم بكليات السياسة والقدرة على القيام بها وبقدر مالها من التنظيمات السياسية المؤسسة على العدل ومعرفتها واحترامها من رجالها المباشرين لها" [٢] وبذكاء شديد يعزي خير الدين التونسي "توسيع دوائر العلوم والعرفان وتمهيد طرق الثروة من الزراعة والتجارة وترويج سائر الصناعات ونفي أسباب البطالة إلى حسن

الإمارة المتولد منه الأمن، المتولد من الأمل، المتولـــد منـــه إتقان العمل) كما يرى أن (الأمم الأوروباوية لما ثبت عندها بالتجارب أن إطلاق أيدي الملوك ورجال دولهم بالتصـــرف في سياسة المملكة دون قيد، مجلبة للظلم الناشئ عنه خراب الممالك، حسبما تحققوا من ذلك بالاطلاع على أسباب التقـــدم والتأخر في الأمم الماضية، جزموا بلزوم مشاركة أهل الحل والعقد في كليات السياسة، ومع جعل المســئولية فـــي إدارة المملكة على الوزراء المباشرين، ويلزم تأســيس القـــوانين المتنوعة عندهم إلى نوعين: أحدهما قوانين الحقوق المرعية بين الدولة والرعية، والثاني قوانين حقـــوق الأهـــالي فيمـــا بينهم". (٣)

ألم تر إلى الأمة تكون خاملة بلا ذِكر، والشعب كسولا بلا همة، والوهن والهوان يعمان الآفاق، وفجأة يبرز قائد أمـــين مخلص مقتدر، فيأخذ بيد هذه الأمة، على ما هي عليه مـــن مذلة وضعف، ويرقى بها درجات الرفعة والقـــوة، مـــع أن الأمة لم تتغير والناس لم تتبدل. ولكن جاء القائـــد والـــزعيم الذي يحشد القوى، ويشحذ الهمم فتنهض به الأمة، ويـــنهض هو بها. وحسبك النظر إلى وقائع التاريخ، أي تاريخ، في أي

مكان وزمان، ترى مصداق ذلك من نهضات الأمم أو عثراتها.

واذكر محمد علي باشا الذي قاد مصر من ظلام عصور التخلف، وبنى لها قوة عسكرية وعلمية وتعليمية، إذ شرع في تحديث البلاد على هدى تقدُّم الغرب الذي اكتشفه المصريون نتيجة الحملة الفرنسية التي كانت ذات هدف استعماري محض، ولكن كان من نتائجها – غير المقصودة – تنبيه المصريين إلى حضارة الغرب.

ولم يهدف الفرنسيون قط إلى تمدين مصر – كما زعموا – فالأمر يشبه الأثر الذي تركته الحملات الصليبية على الصليبيين في الغرب. إذ أثمر احتكاك الغرب بالشرق اكتشاف حضارة المسلمين، وهو هدف غير مقصود أيضًا. وتأسى الغرب آنذاك بالمسلمين، ابتداءً من تربية اللحية والمداومة على الاستحمام (إذ كانوا يتباهون بعدم مساس الماء لأجسادهم مدة طويلة)، وانتهاءً بالاهتمام بالعلم والتنوير. وكان من الممكن وقوف الأمر عند حد إصابة المصريين بالدهشة، وهى أولى درجات التنبيه. غير أن جهود محمد علي والبعثات التي أرسلها إلى فرنسا وإيطاليا

آتت أكلها ضعفين. غير أن الأمر تبدل بعد موت محمد علي باشا وتغيرت سياسات من خلفوه، إذ افتقدوا المهارات القيادية ومقومات الزعامة التي اتصف بها جدهم، وهـــي مقومـــات لا تورَّث من الآباء للأبناء، فهذا هو الخديوي عبـــاس الأول ابن محمد علي، قام فور اعتلائه العرش بإغلاق المـــدارس والمعامل، وأنقص عدد جنود الجيش إلى تسعة آلاف جندي..

وضاع الالتزام السياسي باحتضان حركة النهضة، وهـــو شرط أساسي لاستمرار أي نهضة أو تقدم. وتضافرت علـــى محمد علي جموع الدول الأوروبية وتمكنت من تقليص جيشه واستلبت منه الأراضي التي فتحها. لقد كان الشعب المصري هُو هُو قبل محمد علي باشا وبعده، والظروف كانت متماثلة. ولكن الطفرة حدثت إبان حكم محمد علي، وانطفأت جـــذوتها في عهود من حكموا البلاد بعده. فـــالأمر رهـــن بـــالزعيم والقائد، والتاريخ يحدثنا بأن الملـــوك يحكمـــون وينهبـــون، والشعوب تدفع الثمن. وإذا حقق الملـــوك بعـــض إنجـــازات فالمجد – كل المجد – لهم، فهم الملوك العبـــاقرة المغـــاوير الملهمون. وإن هُزموا، فالشعب هو الذي تقاعس عـــن دفـــع الضرائب لتمويل الحرب، والجنود الجبناء هم الذين فروا من

ميدان المعركة. وكما قال أحد خلفائنا الأمويين للناس زاجرًا: أردتمونا كالخلفاء الراشدين ولم تكونوا لنا كالأنصار. فالناس هم الملومون في كل حال وأي ظـرف. وإذا حاقـت بهـم الهزيمة – أي بالزعماء غير المقتدرين، كان ذلـك بسـبب الأسلحة الفاسدة، ولم يقل لنا أحد كيف كان فسادها وعلى من تقع مسئولية ذلك إن كان صحيحًا. بل لم يكشف لنا أحد فـي وقتها، وقت حرب فلسطين ٤٨، أن العرب جميعًا مجتمعـين حشدوا ١٠% مما حشده اليهود من جند وعتاد فهزمونا شـر هزيمة. المهم لا تكون الهزيمة الساحقة بسبب قصور الملـك أو انشغاله بغير أمور الأمة. فأما المسئولية فتقع على الناس، أو الظروف، أو أي عوامل خارجية أخرى لـيس للسـلطان سلطان عليها، أو أنها في خاتمة المطاف، إذا أعجزه التماس المعاذير، إنه القدر ومن له أن يغير الأقدار!

وما ظنكم بالهوان الذي عاناه العرب والمسـلمون إبـان تاريخهم الطويل، ألاَ ينهض ذلك دليلا على عـدم صـلاحية خلفاء وسـلاطين المسـلمين الـذين حكمونـا، إذ نقصـت صلاحياتهم لممارسة العمل السياسي والقيادي، إذ كان مـن الممكن – لو كانوا أهلا للقيادة – أن يتفادوا الكثير مما حـاق

بنا من هزائم بسبب الضعف الذي أصاب الأمة على أيـــديهم بسبب توارث المُلك ونبذ الشورى، وتفشي الاستبداد والفساد.

يذكر لنا التاريخ أن الأباطرة الرومان في العهــد الـــذي عرف باسم عهد الأبـــاطرة الصـــالحين (٩٦ - ١٨٠م) قـــد اهتموا كثيرًا بالتعليم وتوسعوا في إنشاء المدارس، وأجزلـــوا العطاء للمدرسين، وأصبحت الدولة، لأول مرة، تشرف على التعليم، وانتشرت المكتبات العامة، وزادت نسبة التعليم على نحو غير مسبوق. وهذا عين ما فعله محمد علي باشا إذ أنشأ المدارس وتكفل بنفقات تعليم التلاميذ وإطعامهم وإلباسهم بل وإعطائهم رواتب شهرية إمعانًا في اجتذابهم. ولما كان الآباء يمتنعون عن إرسال أبنائهم إلى هذه المدارس، كان يبعث بمن يقودهم إليها قسرًا بالسلاسل والأغلال. ومثلما أغلق الخديوي عباس الأول المدارس في مصر، أغلق الإمبراطور البيزنطي جستنيان سنة ٥٢٩ م أكاديمية أفلاطون في أثينا وكانت معقلا للعلوم الدنيوية التي وصفوها بالعلوم الوثنية.

أين الديموقراطية في بلاد المسلمين، لا تكاد ترى دولـــة إسلامية ديمقراطية، إلا قليلا وترى الحاكم في كثير من بلاد الإسلام مقدسا فهو الذي انحدر من سلالة ملكية استولى أولها

على الحكم بالسيف فحق له وراثة الأمة كما تورَّث الأنعام، أو زعم زاعمهم أنه حصل في الانتخابات (النزيهة) على نسبة ٩٩,٩٩%.

أين الخلل إذن، إنه الخلفاء والسلاطين والمماليك الذين تولوا قيادة الأمة فلم يحسنوا القيادة، وجلسوا على العرش فانصرفوا إلى نهب بيت مال الأمة، وكانوا أعجز من أن ينهضوا بواجبات الحكم، فهم ليسوا أفضل من كان يتعين عليهم الجلوس على العرش.

"إن حكم الطغاة لا يولد إلا في البيئة الفاسدة، ولا يستمر إلا في المجتمع الجاهل الذي يفقد وعيه وإحساسه بالحرية، وفى غياب الديموقراطية ينمو حكم السادة ليتحكموا في العبيد، ويُستباح كل شيء" (٤).

وإذ لا يتيسر لنا الآن حجة دامغة تمنعنا من الاستيثاق من أن تاريخ الأمم، في المقام الأول، يصنعه الملوك والحكام، فثمة سؤال يصعب التنصل من الإجابة عنه، وهو: أين كان زعماء البلاد الإسلامية عندما زُرعت إسرائيل في قلب العالم الإسلامي واستفحل شأنها؟ وأين كانوا عندما أنشأت جيشها القوى ومفاعلاتها النووية؟ أين كانوا من مشكلات وقضايا

التنمية والأمية والفقر والمرض والتعليم والثقافة والتصنيع؟..

قد يقول قائل: إننا كنا مستعمرين، نعم لكننا تحررنا منذ نصف القرن تقريبًا، وهى مدة فاقت بكثير ما لزم محمد علي للنهوض بمصر من ظلام التخلف والجهل إلى أن أصبحت قوة يخشاها الغرب، وهى مدة أطول بكثير مما احتاجته ألمانيا بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى كي تصبح قوة هائلة في الحرب العالمية الثانية، وهى أطول من المدة التي استغرقتها جهود الألمان لبناء ألمانيا بعد خرابها خرابًا شاملا بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية.

يقول الدكتور محمد عبد السلام الحائز على جائزة نوبل: "إن من الممكن إحداث ثورة علمية في الهند، وأفريقيا، وجنوب شرق أسيا، وأمريكا اللاتينية، والشرق الأوسط، وذلك في غضون خمسين سنة. وليس لدينا عذر إذا لم ندرك هذه الحقيقة" (٥).

نعم، لابد أن يكون هناك مسئول عن تردي أحوال المسلمين وضعفهم، نعم تقع المسئولية على عواتق من حكمونا طوال الأزمنة الماضية ولم يتخذوا التدابير الضرورية لاكتساب وسائل القوة، واصطناع أسباب العزة،

أو أنهم – على الأقل – لم يتركوا مناصبهم وعروشهم لمن هم أقدر منهم على فعل ذلك. أي أنهم لم يَصْلُحوا فلم يُصْلِحوا، ولم يتركوا من يقدر على الإصلاح لتبوأ سدة الحكم. فالصهاينة أنشئوا دولتهم، وفى خمسين سنة أصبحوا أقوى من كل العرب والمسلمين. لماذا حدثت هذه المفارقة وكيف؟ بضعة ملايين من اليهود في أقل من خمسين سنة تفوقوا على مليار ونصف المليار من المسلمين. قد يقول قائل إن الصهاينة يعتمدون على أمريكا وقبلها اعتمدوا على إنجلترا، وإن اللوبي الصهيوني من وراء اليهود يعمل في قلب المؤسسات الأمريكية، وذلك في نظري عذر أقبح من ذنب، فذلك ما فعله اليهود، ماذا في المقابل كان يجب علينا أن نفعله، لقد شرعوا في السعي لصنع السلاح النووي في وقت مبكر في الخمسينيات من القرن الفائت، في زمن كنا لا نحسن فيه سوى ترديد الأغاني الحماسية والهتاف ملء الحناجر لحكامنا الذين خدعونا وأوهمونا، أو توهموا أنهم سيلقون إسرائيل، ومن هم وراء إسرائيل في البحر، (انظر مبلغ الثقة المضللة، وإلى أي حد بلغ السفه)، وسرعان ما دمر الصهاينة قواتنا الجوية على الأرض في أقل من

ثلاث ساعات، وطاردوا جنود قواتنا البرية في الصحراء وهم حفاة عراة يموتون جوعًا وعطشًا على رمال سيناء.

من يصنع التاريخ؟ القادة أم الشعوب ؟

كيف يمكن أن تنحصر الملكات والقدرات في عرق من الأعراق دون غيره؟ أو في أسرة من الأسر دون سواها؟ لقد زعموا ضرورة أن يكون الخليفة قرشيًّا، وقد كان من بين طغاة الخلفاء قرشيون، وكلهم ارتكبوا أخطاء فادحة ما كان يرتكبها من يخشى الله ورسوله. وبما أن الصلاحيات والقدرات لا تنحصر في عرق أو أسرة دون سواها، ولا في جنس دون غيره، لذا فإن توارث السلطة باطل محض، ويورد الأمم موارد البوار. وما استقام الحال في عهد الأباطرة الرومان الصالحين (٩٦ - ١٨٠م) إلا بسبب العزوف عن توريث الحكم لأبناء الإمبراطور، وإن كان على الإمبراطور أن يختار من يخلفه في الحكم من خارج أسرته. وخلفاء المسلمين وحكامهم ورَّثوا العرش لأبنائهم بدعوى الحق الإلهي أولا، ثم بشرعية قريش، وذلك نصب باسم الدين، ثم شرعية الجيش، ولم يذكر أحد شرعية الحق والعدل، وكل من أراد أن يحكم القطيع ادعى قدسية نسبه:

أمويـــون وعباســـيون، والشـــيعة بطوائفهـــا: الفـــاطميون والإسماعيلية والقرامطة والأدارسة. وكل من زعـــم شـــرف نسبه اتجه غربًا وأسس له دولة حيث لم يبق لهم في الشـــرق حظ من الكعكة، فاتجه عبيد الله "الشيعي" إلى تونس، وإدريس "الشيعي" إلى مراكش، وقبلهما "الأموي" عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس.

كان الخليفة العباسي المستعصم مترددًا ضعيف الشخصية، شديد البخل محبًّا للمال ويضن به على جنده. وعندما أقبـــل التتار على بغداد في ١٢٥٨م، لم يحشد الخليفـــة "المعظَّـــم" جيوشه، بل سرَّحها، نعم سرح الخليفة جيشه والتتار مقبلـــون نحوه بقضِّهم وقضيضهم، وذلك استجابة "لنصـــيحة" وزيـــره مؤيد الدين بن العلقمي الذي تعاون مع التتار، ولاحظ الاســـم (مؤيد الدين!!)، والكارثة كل الكارثة أن يعمى السلطان عـــن قدراته الفعلية ويتوهم أنه قادر على ما لا يقدر عليه فعلا إذا جد الجد. فهذا هو الخليفة المستعصم يرد على هولاكو قـــائلا ومتوعدًا: إن ملايين من الخيالة والرجالـــة علـــى اســـتعداد للحرب، رهن إشارتي حتى إذا حلت ساعة الانتقام جففوا مياه البحر. وعاد الخليفة متخاذلا بعد أن تكشفت الأمور، ليطلـــب

من هولاكو الرجوع عن بغداد مقابل أن يـــدفع لـــه جزيـــة سنوية. وهزم هولاكو المستعصم، ووضعه في كـــيس مـــن القماش ورماه على الأرض، وداسته حوافر الخيل حتى مات بعد أن وضع أمامه بعضًا من الجواهر، التي كـــان يخفيهـــا، وطلب منه أن يأكلها، ولما أجاب الخليفة بأن الكنوز لا تزيل جوعًا، رد عليه هولاكو بقوله: "إذا كانت الكنـــوز لا تســـد الرمق، وإذا كانت لا تحفظ الحياة، فلماذا لم تعطها لجنـــودك ليحموك، أو إلى جنودي ليسالموك" (٦). ويعيد التاريخ نفسه، فيقول أحدهم، وقد ظن أنه القائد الملهم الذي لا يأتيه الباطـــل من بين يديه ولا من خلفه، يقول إنه سيدمر إسرائيل ومن هم وراء إسرائيل – يقصد أمريكا – فدحروه في سويعات قليلة. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وعندما احتاج الإمبراطور الروماني ماركوس أوريليوس إلى المال لإعداد جيش لرد الأعداء، قام ببيع نفائس القصـــر الإمبراطوري في مزاد علني، وبيع الودائـــع الثمينـــة التـــي تكدست منذ أيام الأباطرة السابقين في خزانة القصـــر حتـــى ملابس الإمبراطورة المطرزة بالذهب، باعها في المزاد، في حين ضنَّ الخليفة المسلم بأمواله المكدسة، ضن بهـــا علـــى

إعداد جيش كبير لصد التتار. وبينما سرح الخليفةُ جيشه عند قدوم التتار، لم يتردد الإمبراطور الروماني ماركوس في تجنيد العبيد والمبارزين والمرتزقة في الجيش الروماني لتعويض النقص في عدد الجند.

والالتزام السياسي باحتضان ورعاية النهضة العلمية، يلزمه بالضرورة الوعي السياسي، أي أن الالتزام السياسي وليد الوعي بأهمية وضرورة البعث والنهضة العلمية. وهو وعي لا يتوافر لجاهل أو شبه متعلم، وإنما يتعين أن يكون المسئول المنوط به دفع النهضة العلمية ذا خبرة في ممارسة العمل السياسي من خلال أنشطة حزبية يكون قد تدرج فيها إلى أن يكتسب المهارات الضرورية لمزاولة العمل السياسي، وأن يكون قد ترسخت لديه مبادئ الحرية والمساواة وسيادة القانون.

يقول الدكتور محمد عبد السلام (باكستاني) [١]: "كان حكامنا (ونظمهم العسكرية) في باكستان بكل بساطة غير مهتمين بإقامة مدارس للتعليم والعلوم، وكانوا أكثر اهتمامًا ببناء نصب لأنفسهم، ولا يزال هذا التقليد مستمرًا،

---

* الدكتور محمد عبد السلام، باكستاني الجنسية، حائز على جائزة نوبل في العلوم .

للأسف" (٧). وينطبق هذا على غير باكستان، فأول جامعة مصرية أنشئت بالتبرعات الأهلية سنة ١٩٠٨. وقال علماء الحملة الفرنسية عن المدارس في مصر: "ومن الأمور اللافتة للنظر أن المدارس العمومية لا تدين بوجودها إلا إلى أعمال البر. وهذه المدارس كبيرة العدد في أية مدينة تحظى بدرجة ما من الأهمية. ويقوم الرجل الثري عادة بتخصيص جزء من الميراث الذي سيتركه لأولاده لإنشاء مدرسة عمومية والصرف عليها. انظر إذن كيف يقوم كرم وتضحية الخاصة بسد ثغرات الإهمال الإجرامي من جانب الحكومة؟ ولولا حسنات هؤلاء الأغنياء لكانت مصر وتركيا معًا محرومتين تمامًا من معرفة المبادئ الأولية للتعليم. والمدارس العمومية كثيرة جدًا في القاهرة وفي المدن الرئيسية، ولكن من النادر أن نرى مدرسة واحدة في الريف" (٨).

ويحكي لنا التاريخ أن الإسكندر الأكبر كان ينفق مبالغ طائلة على الأنشطة والبحوث التي كان يقوم بها أرسطو. ولكن بطلميوس الأول هو أول من أوقف الأموال على خدمة العلم والعلماء. لذا ظهرت في هذا الوقت مجموعة رائعة من

العلماء الرواد الذين أنتجوا للبشرية إنتاجًا رائعًا، واستمرت هذه الجذوة متأججة طوال عهدي بطلميوس الأول والثاني، ولكن لم تلبث هذه النهضة أن خبت شيئًا فشيئًا مع قلة اهتمام ملوك البطالمة فيما بعد. وبعد انقضاء حوالي القرن من بدء هذه النهضة لا نجد إلا القليل من النشاط العلمي الذي يمكن وصفه بالجودة.

وكان ملوك النورمانديين في أوروبا رعاة عظامًا للعلوم – مثلما كان خلفاء العباسيين في العصر العباسي الأول – ولا سيما روجر الثاني (حكم من ١١٣٠ – ١١٥٤م)، الذي أنشأ ديوانًا للترجمة عمل به علماء من المسلمين والمسيحيين واليهود، وترجموا العلوم العربية إلى اللاتينية، على غرار ما فعله الخليفة المأمون من إنشاء ديوان للترجمة عمل به مترجمون من المسلمين والنصارى. كذلك كان فردريك الثاني – من النورمانديين أيضًا – من رعاة العلم وأسس جامعة في نابولي سنة ١٢١٤ م وهي جامعة بلنسية.

وعندما استعاد الإمبراطور الياباني السلطة في سنة ١٨٦٩، وهو أحد أباطرة السلالة الميجية، أقسم أن يطلب

العلم والمعرفة من أي مصدر وكل مصدر متاح، وأوفد البعثات التعليمية إلى خارج اليابان، وأتى بالمهندسين من أوروبا، وأقام الجامعات والمعاهد البحثية. وبعد سنة واحدة أسس وزارة الهندسة التي وضعت أسس الثورة الصناعية اليابانية. وفى سنة ١٨٧٣ أنشئت كلية الهندسة في طوكيو، وتوسعوا في إيفاد البعثات إلى خارج اليابان، وإنشاء الجامعات والمؤسسات البحثية والجمعيات العلمية. واهتموا بالتعليم التقني، (فكانوا يدرسون بالدرجة الأولى المواد العلمية مثل الهندسة والزراعة والطب والجيولوجيا مع المواد الأساسية المعززة مثل الرياضيات والفيزياء" [٩].

وكانت الثورة الاشتراكية الروسية في سنة ١٩١٧، والثورة التركية في سنة ١٩٢٢، تقريبًا متعاصرتين. غير أن مسار كل منهما تباين واختلف وفقًا لرؤية وقدرات زعيم كل من الثورتين، فظن كمال أتاتورك أن سر التقدم في تقليد الغرب، وتحول إلى العلمانية، وحظر التعليم الديني، واستبدل الحروف اللاتينية بالحروف العربية إيغالا منه في طمس الهوية الإسلامية. واقتدى بأوروبا ظنًّا منه أن ذلك هو السبيل، حتى أنه شُغل بإلغاء الطربوش وفرض ارتداء

القبعة، بل إنه أعدم من استهزأ بالقبعة!. ذلك كان مبلغ همته وعلمه. أما فلاديمير لينين القائد الشيوعي، فصرف همته إلى أمهات الأمور، فأنشأ لجنة للترجمة من اللغات العالمية لترجمة كتب العلوم والتكنولوجيا، وضم فريق المترجمين بمعاهد التكنولوجيا ٢٥٠٠ مترجم، بالإضافة إلى اثنين وعشرين ألف خبير مترجم يعملون بعض الوقت. وتنامت المؤسسات العلمية حتى زاد عددها على خمسة آلاف مؤسسة يعمل بها مليون عالم، فوصل الروس إلى القمر سنة ١٩٥٧، أي بعد أربعين سنة فقط من قيام ثورتهم، في حين أن تركيا لم تقطع شوطًا ذا بال، وأصبحت كالمنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى، فلم تحتفظ بالهوية الإسلامية، ولم تبلغ ما بلغه الغرب العلماني.

ولما أبرمت أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية عدة اتفاقات مع كثير من الدول تسمح فيها للسفن العسكرية الأمريكية بالمرور من المحيط الأطلسي لتصل إلى أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا، تمكنت أمريكا بذلك من مراقبة الاتحاد السوفيتي الذي كان يفصل بينه وبين أمريكا سدس الكرة الأرضية تقريبًا، وكان بوسع أمريكا الوصول إلى روسيا في

عشر دقائق. ولكن العلماء الــروس حلــوا هــذه المعضــلة باختراع الصواريخ التي يصل مداها إلــى أمريكــا حاملــة القنابل الهيدروجينية. إنه العلم.. العلم.

كانت مطبعــة الألمــاني جــوتنبرج (١٣٩٨ - ١٤٦٨) مطبعة خشبية، وبنى الإنجليزي وليم نيكولــون أول مطبعــة حديدية تعمل آليًّا في سنة (١٧٩٠)، "وكانت جريدة التــايمز أول جريدة طبعت بمطبعة تعمل بمحرك بخاري فــي ســنة ١٨١٤، في وقت كانت تعيش فيه شخصيات إسلامية كبيرة، إلاّ أن العالم الإسلامي كله لم ينتج رجلا واحدا يشعر بأهمية الأمر في حينه، ويدرك أن هناك طاقة جديدة ظهــرت فــي العالم اسمها المطبعة وقريبا ستسيطر علــى عقــول الــدنيا كلها" (١٠).

وظهور الغرب كسيد جديد للعالم كان بسبب الآلة وقــوة البخار والثورة الميكانيكية التي استخدم فيها الآلة بدلا من قوة عضلات الإنسان والحيوان. ونظــرًا لأن حكــام المســلمين طوال عصورهم لم يكونوا الأقدر أو الأكفأ، بل كانوا الأقوى والأشد بطشاً، فقد افتقدوا الملكات والقدرات التي يتمكنون بها من قراءة الأحداث واستشراف المستقبل، والاســتفادة مــن

منجزات العلم قبل اتساع الهوة بينهم وبين الآخرين. لذا لم يستفد المسلمون من ثورة الآلة وقوة البخار، فعندما اخترع الإنجليزي توماس سيوري المحرك البخاري في سنة ١٦٩٨ (كان ذلك معاصرًا لحكم الإمبراطور عالمكير للهند، والسلطان أحمد الثالث العثماني (١٦٧٣ - ١٧٣٦)، إلا أن الإمبراطوريتين المغولية والعثمانية كانتا بمعزل عن العالم فلم تعلما بخبر هذه الثورة التي حدثت في موازين الطاقة، تلك الطاقة التي انتشرت وقضت في النهاية على هاتين الإمبراطوريتين" [١١].

وإذ ثبت لنا الآن، بما لا يدع مجالا للشك أن نهضة الأمم رهن بالرجال العظام الذين يقودونها، وأن ما من أمة سادت وقويت إلا بفضل حكامها الراشدين، إذ ثبت لنا ذلك، أليس من المعقول والمنطقي إذن القول بأن ضعف الأمم وهوانها ومذلتها رهن برجال حكموها وما هم بأهل للجلوس على عروشها؟؟

كان ذلك ما علمناه من الأداء لسلاطيننا على الصعيدين العلمي والعسكري، ترى ما أداؤهم على الصعيد الاقتصادي؟ اسمع، تبلغ قيمة الاستثمارات العربية في الخارج حسب

تقدير مجلس الوحدة الاقتصادية العربية ٢٤٠٠ مليار دولار. ويبرز تساؤل هام، لماذا هاجرت هذه الأموال؟ ومن أصحابها؟ وهل يمكن استعادتها؟ ومعظمها استثمارات خاصة أي يملكها أفراد من جنسيات عربية مختلفة، وبعضها استثمارات عامة تملكها بعض الدول العربية وبخاصة الخليجية. وإذ يخفق العرب في استثمار أموالهم الطائلة في بلادهم، فلا تعجب إن لم يستثمر الأجنبي أمواله في بلادنا. وتبلغ نسبة الاستثمارات الأجنبية في البلدان العربية من جملة الاستثمارات العالمية ما قيمته ١% فقط، فالعالم العربي أكثر مناطق العالم طردا للاستثمار وأقلها جذبًا له. وعلى الرغم من ضخامة كم الأموال المستثمرة خارج العالم العربي، يأسف المرء إذ يعلم أن الفجوة الغذائية العربية تبلغ ٢٠ مليار دولار (تقديرات سنة ٢٠٠١)، تزيد سنويًا بنسبة ٣%. ويبلغ عدد العاطلين في العالم العربي ١٨ مليون عاطل، ويعيش نحو ٦٢ مليون عربي (٢٢% من جملة السكان) على دولار واحد يوميًّا، ويعيش ١٤٥ مليون عربي (٥٢% من جملة السكان) على دخل يومي من ٢ إلى ٥ دولارات. ويعيش ملايين العرب تحت خط الفقر، أي يتعذر عليهم الحصول

على طعامهم في بلاد تستثمر في الخارج ٢٤٠٠ مليار دولار، اللهم فاشهد، واسترداد بعض هذه الأموال كفيل بحل جميع المشاكل الاقتصادية لتلك البلاد. أما عن دلائل الفشل الاقتصادي الذريع لسياسات العالم العربي فتتمثل في تعاظم حجم الديون الخارجية والداخلية، إذ بلغت حوالي ٥٦٠ مليار دولار في نهاية سنة ٢٠٠٠.

وتتبين فداحة هذه الديون إذا قيمناها في ضوء الناتج المحلى الإجمالي للبلاد المقترضة، إذ بلغت النسبة المئوية للدين العام الخارجي إلى الناتج المحلى الإجمالي لسنة ٢٠٠٠ في بعض هذه البلدان ما يزيد على ٢٢٠% ومن العجيب أنه عندما زادت أسعار النفط في السبعينيات، وتحقق للدول العربية المصدرة للبترول من وراء ذلك عوائد نفطية هائلة، زاد في الوقت نفسه حجم الديون الخارجية بمعدلات لم يسبق لها مثيل، واستوت في ذلك الدول العربية المصدرة للنفط والدول غير النفطية، الأمر الذي شكل عبئًا ضخمًا على خطط التنمية في هذه الدول، وأثر سلبًا على معدلات التضخم، والقدرات الاستيرادية، والادخار المحلى في هذه البلدان التي يضطر بعضها إلى خفض قيمة العملة الوطنية

تحت ضغوط الأطراف الدائنـــة، فتتـــدهور القـــيم الحقيقيـــة للمدخرات، ويضطر من لديه أموال إلى إيداعها في خـــارج البلاد، وذلك من أهم أسباب ظاهرة هروب رءوس الأمـــوال إلى الخارج خوفا من تآكلها، ويزيد من جراء ذلك معـــدلات البطالة وتسريح العمالة بما يصـــحبه ذلـــك مـــن مشـــكلات اجتماعية عويصة. وأدى تخلف الاقتصاد إلـــى مزيـــد مـــن التبعية للدول المتقدمة الدائنة، فتحكمت في مسارات التنميـــة وتمثلت هذه التبعية في تبعية اقتصادية وتكنولوجية وسياسية.

قدسية الحاكم :

تقديس الحاكم هو استرهاب يفرضه المســتبد والطاغيـــة، ويتقبله المقهور المبطوش به. وهو خضوع مارسه الشـــرقي والمصري من أيام الفراعنة، وأُعجب به أبـــاطرة الرومـــان فأعلن بعضُهم نفسه إلها. ولمَّا تعذَّر بعد ذلك ادعاء الألوهية، قال الخلفاء والملوك الظلمة بالحق الإلهي؛ إذ هم يمثلـــون الله وهم ظله في الأرض. ولما ثارت الشعوب على مدعي الحق الإلهي لم يقل به أحد بعد ذلك وإن احـــتفظ بعـــض الملـــوك بمظاهر هذا التقديس في تقبيل الأيدي والأقدام (كـــان وزراء الشاه يقبلون يده، ويسجدون له أحيانًا). وهناك طور آخر من

التقديس، وهو ادعاء الانتساب إلى الأنبياء، ففي بلاد الإسلام هناك من يقول بانتسابه إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهم الأشراف. وهناك من يزعم انتسابه إلى سيدنا أبى بكر الصديق، وهم البكرية. والطريف أن هناك من يقول بنسبه إلى النبي سليمان عليه السلام، فالطغاة والمستبدون يجترئون شيئًا فشيئًا على عقول شعوبهم المقهورة، ويزيدون جرعة القهر للناس، فإن تقبلوها وهم صاغرون، زادوها، وهكذا حتى يأتي الوقت الذي لا يستحي فيه المستبد من زعم أو فعل أي شيء، فلم يكتف هيلاسيلاسي بأن يقبل الناس قدميه ويركعوا له، بل زعم أنه الوريث الشرعي للنبي سليمان والملكة سبأ، الوريث رقم ٢٤٥، لا أدري كيف حسبها، وقد جاء ذلك في الدستور الإثيوبي "لنبي الله" هيلاسيلاسي الذي أطلق على نفسه لقبًا كبيرًا هو: صاحب الجلالة الإمبراطورية، ملك الملوك، الأسد الظافر، من سبط يهوذا، الإمبراطور العظيم، المنحدر مباشرة من سلالة ملكة سبأ وبيت داود. فإذا لم تستح فافعل ما شئت. وإذا خضعت الشعوب وامتثلت للقهر فلا يحق لها فوق ما يحق للبهائم والأنعام.

والإسلام الحنيف يربي الناس علـــى العـــزة والكرامـــة. والمسلم لا يقدس أحدا سوى خالقه، ولا يركع لسواه. وللمرء أن يعجب لما أصاب المسلم فيقبل أيدي حكامه بلا اســـتنكاف على نحو مهين وغير إنساني. قال سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: "قبلة اليد من المسلم ذل، ومن الذمي خدعة، ولا حاجة لنا أن نذل أحدًا أو يخدعنا أحد). وكان إمام اليمن يطلب من رعاياه تقبيل قدميه وذلك قبل نحو أربعـــة عقـــود خلت. وهي أمور لم يمارسها المسلمون مع نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم. هل سمع أحدكم أن أحدا قبَّل قـــدمي النبـــي صلى الله عليه وسلم، أو سجد له؟ ولما عدم خلفاؤنا الدين في نفوسهم، أضفوا صفات الجلالة على أسمائهم لعلهـــا تخـــدع الناس بإيمانهم المزيف، فتراهم يسمون أنفســـهم: المنتصـــر بالله، والمستعين بالله، والمعتز بالله، والمهتدي بالله، والمعتمد على الله، والمكتفي بالله، والمقتدر بالله، والراضي بـــالله...، وليس لهم حظ من هذه الأسماء أو صفاتها. وتصـــل درجـــة تقديس الطغاة إلى حد التأليه، فعندما (اجتمع مجلس الشـــيوخ بعد وفاة الإمبراطور أغسطس لتأبينه، بلغ بهم الحماس إلـــى إضفاء الألوهية عليه رسميًّا، واعتباره مـــن عـــداد الآلهـــة

الرومانية الخالدة، وتم إنشاء هيئة دينيــة للإشــراف علــى عبادته ونشرها في جميع أنحاء الإمبراطورية، كمــا أنعــم مجلس الشيوخ على زوجة الإمبراطور، واسمها ليفيا بلقــب أغسطا أي المقدسة. وأنعم مجلس الشيوخ على ابنه بــالتبني بجميع السلطات والألقاب مدى الحياة" (١٢).

ولما كانت قدسية الحاكم ضربًا من ضروب الاسترهاب، فلم يكن يسترهب الرعية سوى طاغوت يعلم أنه ظالم مستبد. فالأنبياء نفوا قدسيتهم وأثبتوا بشريتهم، وخلفاؤنا الراشــدون العظام لم يدَّع أحدهم قداسة أو علوا فوق مستوى البشر. كان سيدنا عمر بن الخطاب ينام آمنًا تحت شجرة بــلا حراســة ويرتدي ثوبًا به ما يزيد على العشرين رقعة، فقد كانوا بشرا متواضعين. "وكان الإمبراطور الروماني دوميتيانوس (٨١ – ٩٦م) يحرص على أن يُنادى بلقب "المولى والــرب" وكــان رجاله يقولون: (إن مولانا وربنــا يــأمر بــأن ينفــذ هــذا الشيء...، وجعل القسم بعبقرية الإمبراطور شرطًا في كــل عقد أو وثيقة" (١٣). ولكن هذا المولى والرب لعنــه النــاس ومجلس الشيوخ بعد موته وأمروا بمحو اسمه وتدمير تماثيله. وكانت له سلوكيات شائنة مع ابنة أخيه...، ولشــدة خوفــه

نادرًا ما كان يخرج من حجرته في قصره التي كسا جدرانها بغطاء لامع ليرى من يقف خلفه لكي لا يُطعن من الخلف، ويحتفظ دائمًا بخنجره تحت وسادته ليلا، ومع ذلك حاكت له زوجته مؤامرة لقتله تماثل تمامًا المؤامرة التي دبرتها شجرة الدر لقتل زوجها السلطان المملوكي عز الدين أيبك، ومات طعنًا بخناجر المتآمرين. وتُركت جثته (جثة الرب والمولى) ملقاة ودُفنت في مقابر المعدمين، ذلك كانت نهاية الرب الذي كان يقسم الناس بعبقريته.

ومثلما كان الخلفاء العباسيون يضيفون إلى أسمائهم صفات وأسماء الجلالة كان الإمبراطور الروماني أغسطس يضيف اسمه كذلك إلى أسماء آلهة روما ليكتسب قداستها، فيطلق عليها اسم "فورتونا" أغسطس، "وباكس" أوغسطا، وغير ذلك، كي يقنع الرومان أن كلمة أغسطس كلمة مباركة ومقدسة. كما خلعت زوجات وأمهات الأباطرة على أنفسهن الألقاب المهيبة الفخمة، فكانت أم الإمبراطور ألكسندر سيفيروس تطلق على نفسها ألقاب: أغسطا والدة الأغسطس، وأم ثكنات الجيش ومجلس الشيوخ والوطن!!!.

القوة غير العدل

كان الأمويون أقوياء، واتسعت في زمنهم رقعة الدولــة، ولكن تقلصت كرامة الإنسان، وانكمش الدين في الضــمائر وضاعت الأخلاق. وحقا ازدهر العلم في عهــد العباســيين، ولكنهم نهبوا الأمة وتخاذلوا أمام الزحــف المغــولي الــذي تصدى له المماليك. كذلك كان العثمانيون سلاطين أقوياء، إذ أنشئوا دولة قوية تصدت لأعداء الإسلام، وعطلــت الغــزو الاستعماري للأمة الإسلامية حوالي أربعة قرون. هذا كلــه صحيح. ولكن القوة غير العدل، والقوة غير الحق، ولو كان الأمر مسألة قوة وفتح بلاد واستيلاء علــى أراض، لكانــت فتوحات التتار وإمبراطوريتهم العسكرية هي المثــل الــذي يُحتذى، ولكنها إمبراطورية قامت على الظلم والقهر والبطش والباطل، حيث فتح جنكيز خان بولندا والمجر والصين ودولة خوارزم الإسلامية وروسيا التي أباد جيشًا لهــا تعــداده ٨٢ ألف جندي في خمسة أيام، وبلغ ضحايا جنكيز خان حــوالي ٥٠ مليون ضحية بين قتيل وجريح وأسير، وذلك في غضون ربع القرن فقط.

وإسرائيل دولة قوية، ولكنها قوة غاشمة ظالمة. والبلطجي قوي مفتول العضلات يمكنه أن يصرع رجلا بقبضته، ولكنه

ظالم باغ. والإسلام يحفل بالقوة ولكن مع العدل، ويرى القوة المجردة من العدل ظلمًا وطغيانا لا يرضاهما الله. فقوة القوي لا تبرر ظلمه، والإسلام يريد القوة والعدل معًا، إنه يتفرد بذلك. ألا ترى أن القوة لا تُحمد إلا إذا صُرفت في حق وعدل، شأنها شأن الصدقة التي لا تُقبل إلا إذا كانت من مال حلال. فالسلاطين الذين يحاربون الأعداء ويبنون الأساطيل ويجيشون الجيوش، ولكن ينهبون بيت المال، ويظلمون الناس، ويستولون على العروش بالسيف والشرعيات المزيفة، سواء أكانت شرعية قريش أم شرعية الجيش، إنهم لا يستوون مع المثال الذي شهده التاريخ مرة واحدة أثناء حكم الشيخين الجليلين رضي الله عنهما وأرضاهما (أبي بكر وعمر)، والفرق بيِّن بيِّن، كالفرق بين المغانم والمغارم.

والذي يباعد بين الحق والقوة هو الدينار، والذي يفرق بين العدل والسلطة هو الدينار، فالدينار هو القبلة التي تُرتجى، حولها يتحلق المتحلقون، يطوفون حولها ولا يملُّون.

كلام عن السلطة

١. هـ. ج. ويلز – موجز تاريخ العالم.
٢. خير الدين التونسي – أقوم المسالك (المقدمة) –
٣. الطبعة الأولى.
٤. المرجع السابق.
٥. د. محمود متولي – طغاة التاريخ.
٦. د. محمد عبد السلام – التنمية والتقدم العلمي.
٧. إسبورن – الإسلام في زمن خلفاء بغداد –
د. مصطفى طه بدر – محنة الإسلام الكبرى.
٨. د. محمد عبد السلام – التنمية والتقدم العلمي.
٩. علماء الحملة الفرنسية – وصف مصر، الجزء الأول.
١٠. د. محمد عبد السلام – التنمية والتقدم العلمي.
١١. وحيد الدين خان – واقعنا ومستقبلنا في ضوء

١٢. الإسلام.

١٣. المرجع السابق.

١٤. د. سيد الناصري – تاريخ الإمبراطورية الرومانية.

١٥. المرجع السابق.

الفصل الثاني

البطش

- عمدة القرية له حق الليلة الأولى وفض بكارة أي
- عروس قبل زوجها.
- تقشير جلد المذنب وحشوه بالقش وهو حي.
- السلطان العثماني المسلم يقتل تسعة عشر من إخوته
- واثنين من أبنائه حتى لا ينافسوه على العرش.
- في مدة ٤٣ سنة حدث ٣٥ انقلابا عسكريًّا في البلاد
- العربية.
- تسعة من الخلفاء العباسيين ماتوا غيلة، والخليفة
- العاشر قتل في زكيبة.

البطش

العقل والبطش ضدان لا يجتمعان كما لا يجتمع الماء والنار. فالعقل لا يزدهر ويتألق إلا في ظل الحريات. وإن كان من المعروف أن رأس المال جبان لا يستقر إلا حيث الأمان كما يقول الاقتصاديون، فكذلك العقول المبدعة، لا يقر لها قرار إلا حيث الأمن والسلام. لذا فحيثما يحل البطش يغيب العقل. فالترويع والترهيب يعطلان الملكات العقلية، فالبطش الذي مارسه الظلمة والطواغيت من أجل قمع شعوبهم وتسييرهم كالأنعام – وإن كان المقصود من ورائه امتلاك ناصية أمورهم طلبا للمكاسب السياسية والمالية – قد أضر بالعلم والعقل ضررا بالغا يصل إلى حد ما يمكن اعتباره جناية عظمى على هذه الشعوب، أي أننا عندما نتحدث عن البطش فكأنما نتحدث عن استرهاب العقل وتعطيله، وإفساد البيئة الراعية للإبداع والمبدعين وهي ضرورية للتحريض على الإبداع. فالشخصية المبدعة لا توجد خارج الإطار الاجتماعي حيث تعيش وتبدع، ومن يحقق الاكتشاف ليس هو من يملك الاستعداد فقط، وإنما من تحرضه بيئته على الإبداع. "وكل ما يحيط بالفرد من أمور

اجتماعية، وتأثير العمل والثقافة، يمكن لها أن تسهل أو تحبط التفكير والأفعال الإبداعية، وأن ما نسميه إبداعا ليس سمة محددة للشخصية، بل هو شيء متغير، فيزيد ويقل بتأثير الظروف وأوضاع الحياة التي تساعده على النمو والازدهار أو الذبول والموت" (١).

(إن العباقرة أقلية يسيرة ولا يتأتى ظهورهم إلا بالمحافظة على المناخ الذي يلائمهم، والعبقرية لا تزدهر إلا في جو من الحرية، والعباقرة هم أقوى الناس شخصية، وبالتالي أقل الناس احتمالا لتكييف أنفسهم وفقا للأوضاع المألوفة والأنظمة المعتادة.. فإذا هم استسلموا لإكراه المجتمع جبنا وفَرقَا، لم يستفد المجتمع من عبقريتهم شيئا مذكورا" (٢)

"ولقد أغلق ديكارت مكتبه على بحوثه الثورية في علم الضوء، بعد أن نكس جاليليو جاليلي رأسه أمام محكمة التفتيش وكان يخشى القتل، وهرب وأخفى عن الناس بحوثه في العلوم الرياضية وهو العالم الكبير. لقد عذبه إعلان الحرب على كوبرنيكوس وعلى جاليليو، كما كان قتل برونو ذروة المؤامرة على العلم. ويمكن تلخيص ذلك بعبارة واحدة نطق بها التاريخ هي الخوف من البطش!" (٣).

أما العقل المسلم فقد طاله البطش والاسترهاب، بدءًا من استرهابه بالسلطان ورجاله، والمماليك، وترويعه، أي العقل، بشيخ الطريقة وانتهاء بإخافته من الهبل والمجاذيب المنتمين للطرق الصوفية. حالات مستمرة وحلقات متصلة من التخويف والاسترهاب انتهت بهذا العقل إلى الشلل والجمود فاستغنى عنه المسلمون وزهدوا فيه.

يقول جمال الدين الأفغاني: (إنكم معشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد، وربيتم في حجر الاستبداد، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة – يقصد الهكسوس – حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين، وتعنتون لوطأة الغزاة الظالمين، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور، وتنزل بكم الحيف والذل، وأنتم صابرون بل راضون، تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والأكراد والمماليك ثم الفرنسيس والمماليك والعلويين – سلالة محمد علي – وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه، ويهيض عظامكم بأداة عسفه، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة، لاحس لكم ولا صوت. انظروا أهرام مصر وهياكل ممفيس وأثار طيبة وحصون دمياط، إنها تشهد بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم. هبوا

من غفلتكم، اصحوا من سكرتكم، انفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول، عيشوا كباقي الأمم أحرارا سعداء ـ أو موتوا مأجورين شهداء" (٤).

وفى ظل التداول السلمي للسلطة قلما نسمع أن ملكا قتل أو رئيسا اغتيل. فالقتل في هذا المقام غير مجد، والشعوب المستنيرة لا تسمح به. وإن استولى أحدهم على السلطة بالتغلب بالسيف، فإن الشعب سيسقطه لا محالة في ذلك في المجتمعات المتقدمة ديموقراطيا والتي تربت على سيادة القانون والحرية والكرامة. هم لا يسمحون بغلبة المستبد، ولا يفكر أحد في حكم مثل هذه الشعوب رغم أنوفها. لذا لا نسمع عن انقلابات عسكرية في دول أوروبا وأمريكا، ولا نسمع أن من يشهر سيفه يجلس على العرش. أما في باقي المجتمعات غير الديمقراطية تكون القوة والبلطجة هي بديل صناديق الانتخابات الزجاجية، وهى التي توصل إلى التيجان والعروش والنفوذ وبيت المال. والبطش هو الذي يضمن القبض على أعناق العباد، والمغامرة هي الموصلة للمال والنفوذ. لذا فالبطش آلية فاعلة للنظم غير الديمقراطية، ووسيلة ضرورية لفعاليات المتغلبين بالسيف، وأداة لقهر

الشعوب التي لم تختر حاكمها، كما أنه - أي البطش - وسيلة القضاء على المنافسين الذين يطمحون إلى المزاحمة على العرش والتاج، ولإسكات أصوات المعارضين - عدد المعتقلين في السجون العربية من سجناء الرأي حوالي أربعين ألف معتقل - ولما كانت الكعكة مغرية، فإن كل معدومي الضمائر يسيل لعابهم ويتصارعون فيما بينهم، وليس إلا القتل يحسم الموقف لصالح أحدهم، على طريقة المماليك، ويتساقطون إلا واحدًا يضع التاج على رأسه بعد أن يكون قد مثل بجثث من قاتلوه، بعد رميهم بالخيانة والرجعية ومعاداة الشعب. ولكن الأمر يبقى رهن دائرة القوة والبطش والغلبة للأقوى. وتكون المغانم والغنائم للأكثر بطشًا. ويبقى الأمر على ما هو عليه حتى يفرز هذا النظام العفن قويا آخر يقتل المستبد السابق ويمثل بجثته ويتهمه بقائمة طويلة من الخيانات، ويمحو ذكره من على نقوش الآثار والمعابد، هكذا فعل رمسيس وتحتمس وغيرهما، ويعلن في وسائل الإعلام عن مخازيه ومثالبه، ويتم فضحه على الملأ، ويتولى ذلك من كانوا ينفخون له في الأبواق سابقا ومن هتفوا له دومًا "بالروح والدم نفديك يا فلان"، إنهم المنتفعون وأشياعهم

وجماعات المصالح الذين يطبلون ويزمرون لمولانا الملك، وإن سقط يواصلون النفخ في مزاميرهم والدق على طبولهم ولكن للملك الجديد، مات الملك عاش الملك. وإن كان الملك الجديد رحيما لا يمثل بجثة من يقتله بل يكتفي بضرب عنقه ورمي جثته للكلاب، يهلل أعوانه، وربما كانوا هم أنفسهم أعوان الملك السابق، معتبرين ذلك رحمة منه تستوجب الإشادة. وإن كان شديد الرحمة، اكتفى بحبسه في زنزانة مظلمة بلا ماء أو زاد حتى يقضي جوعا، فيرفع الأعوان والفقهاء أكف الضراعة مبتهلين إلى الله أن يدخل سلطانهم الرحيم فسيح جناته، فهو النبيل الذي يرحم أعداءه ويهبهم الحياة، ولا مانع لديهم من الدعاء له لأنه شرفهم قبل ذلك بالبصق في وجوههم.

ولما كان الظلمة والطواغيت يظنون أن الدنيا تقبل عليهم ولا تدبر، فإنهم يقتلون عباد الله، ويقتلون بعضهم البعض: بلغ عدد الذين اغتيلوا من الحكام في عالمنا العربي المعاصر حوالي ٢٣ شخصا، منذ حوالي قرنين من الزمان). أما عن القتلى من الخلفاء الأمويين، فعددهم ثلاث خلفاء: الوليد الثاني بن يزيد الثاني، وإبراهيم بن الوليد الأول، ومروان الثاني بن

محمد المعروف باسم الحمار. وقتلى العصر العباسي الأول اثنان هما: الأمين، قتله أخوه المأمون، والمتوكل بالله، قتله ابنه. أما قتلى العصر العباسي الثاني فسبعة خلفاء: المستعين بالله، والمعتز بالله، والمهتدي بالله، وعبد الله المرتضي، والمقتدر بالله، والمستظهر بالله، والمسترشد بالله، غير الخليفة المستعصم بالله قتيل التتار. أما قتل الحكام والاستيلاء على العرش بالسيف في العصرين المملوكي والعثماني فقد أصبح ظاهرة، وحسبنا أن نذكر أن السلطان العثماني محمد الثالث قتل تسعة عشر أخا وابنين له بعد أن أفتاه "فقهاؤه" بجواز قتل الأمراء والإخوة منعًا للفتنة! انظر إلى أي درجة بلغ ضلال فقهاء السلطان. وكان القتل والبطش بالمنافسين على الحكم من الإخوة والأعمام والأبناء ظاهرة في العصر العثماني، ومن يسلم منهم من القتل يتم حبسه في سجن داخل القصر أو في قفص كما تحبس الحيوانات. أما عن الانقلابات العسكرية في عالمنا العربي والاستيلاء على السلطة بشرعية الدبابة، فبلغ عددها ٣٥ انقلابا في ٤٣ سنة، خلال المدة من سنة ١٩٥٢ إلى ١٩٩٥.

وتتجرع الشعوب المستأنسة القهر من الطواغيت ظنًّا منها أن في ذلك السلامة والنجاة، ذلك ما أفتاهم به فقهاؤهم اجتنابا للفتنة وإراقة الدماء. ولكن ذلك الامتثال لا يحول دونهم وإراقة دمائهم. هل بلغك أن محمد سوهارتو رئيس إندونيسيا السابق تسبب في مقتل واختفاء ما يربو على مليون شخص! زعمًا منه مواجهة الزحف الشيوعي، وتم إسقاطه بعد أن رمى الشعب المقهور بفتاوى الفقهاء عرض الحائط، وخرجوا في مظاهرات شعبية أسقطته بعد أن نهب من مال الشعب ستة عشر مليار دولار، منها ٥٧٠ مليون دولار سرقها من سبعة صناديق خيرية كان يديرها بنفسه، واحتل الترتيب السادس في قائمة أغنى الرجال في العالم. ولم يفوت ابناه "تومي"، "توتو" الفرصة فاستوليا كذلك على عشرات الملايين من الدولارات عن طريق استغلال النفوذ.

وكانت العلاقة بين الحاكم والمحكوم طوال تاريخنا، أو معظمه، هي علاقة السيف بعنق المحكوم عليه بالقتل، أو علاقة السوط بظهر المذنب، وفى أقل درجاتها، علاقة الكف بقفا المطلوب إذلاله. "ففي مصر العثمانية كان الإعدام بالخازوق طريقة شائعة، وكانت النساء المتهمات بالسلوك

الشائن، يُربطن في ذيل الحصان ويتم جرّهن في الشوارع. وكانت هناك طريقة شنيعة للإعدام، وهى تقشير جلد المذنب وهو على قيد الحياة، ثم ملء جلده بالقش، ثم يوضع فوق ظهر حصان" (٥).

وصدق المثل القائل:

إذا كان رب البيت بالدف

ضاربًا فشيمة أهل البيت الرقص

إذ يبطش مولانا ولي النعم، فيصبح البطش سمة عامة يتسم بها كل ذي سلطان – أيا كان. فالقادر يبطش بمن هو أقل منه قدرة. السلطان يبطش بمماليكه، ومماليكه يبطشون بالناس، ويغالون في جباية الضرائب، وفرض الإتاوات، ويشتدون في تحصيلها من الفلاحين المعدمين، بل كانوا يأخذون أبناء من يتأخر في السداد كرهائن. وحتى البدو ينهبون محاصيل الفلاح المسكين، "فإذا مر الواحد من البدو على فلاح يحرث أرضًا يسأله عن صنف الزراعة الذي أراده، فمتى عرف ذلك قال: أنا شريكك، وتركه ومضى، حتى إذا جاء وقت الحصاد حضر وقاسمه الغلة،...، وكانت البدوية من البدويات تمر بالرجل يسوق ساقيته فتنام له في

مدار الثور، فإذا لم يبادر الفلاح بمنعه من الحركة قبــل أن يمس طرف ثيابها، هلك بسيوف قومها وخرب منزله. فكــان يبادر بإيقاف البهيمة، ويسأل البدوية عما تريد، فتقترح عليه ما شاءت من بن وصابون وأقمشة، فلا تبرح مكانهــا حتــى يحضر لها جميع ما طلبت" [٦]. حتى العمدة في القرية بما له من حظ متواضع من السلطة، كان يمارسه بنفس الطريقــة، يسرق الفلاحين ويغتصب الفلاحات فيما كــان يُعــرف فــي أوروبا في القرون الوسطى بحق الليلة الأولى، إذ كان النبيل يضاجع كل عروس في ليلتها الأولى. ذلك كان يحدث عندنا قبل مائة سنة أو نحو ذلك، "فالعُمد كانوا يعملــون كأعمــال البدو، يستعبدون من تحــت أيــديهم مــن أهــل بلادهــم، ويسخرونهم في أشغالهم الخاصة بهم بأدنى القوت وأردئــه. لا ينال الواحد منهم ثوبًا يستر بدنه إلا بعد أن يعرى مدة هو وامرأته وعياله،...، وكان الرجل إذا أراد أن يــزوج ابنــه أو ابنته فجميع المهر يأخذه العمدة وبصحبته رأسان أو أكثر من الغنم أو البقر، والطامة الكبرى أن البنت تبيت أول ليلــة في صورة العروس عند العمدة، يتمتع بها ويفترعهــا، ثــم تزف ثاني ليلة لصاحبها، ووقع بسبب ذلك قتــل كثيــر" [٧].

ذلك كان يحدث في بلاد انعدمت فيها ثقافة المقاومـــة بفعـــل اعتقال عقلها.

البطش

١. ألكسندر روشكا – الإبداع العام والخاص.

٢. جون ستيورات مل – الحرية.

٣. عزيز السيد جاسم – تأملات في الحضارة والاغتراب.

٤. محمد رشيد رضا – تاريخ الإمام محمد عبده – الجزء

٥. الأول.

٦. مايكل ونتر – المجتمع المصري تحت الحكم العثماني.

٧. الشيخ حسين المرصفي – رسالة الكلم الثمان – تحقيق

٨. الدكتور محمد حافظ دياب.

٩. المرجع السابق.